

البلاغة العربية

أصلها وأصولها

للدكتور

السيد احمد خليل

الاستاذ المساعد بجامعة الاسكندرية

والمنتدب بجامعة بيروت العربية

١٩٦٨

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

البلاغة العربية

أصلها وأصولها

للدكتور
السيد احمد خليل
الاستاذ المساعد بجامعة الاسكندرية
والمنتدب بجامعة بيروت العربية

١٩٦٩

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله الاكرم سيدنا محمد ، وبعد .

*

فقد كنت كتبت مدخلا الى دراسة البلاغة العربية تحدثت فيه عن العربية وتطورها الدلالي ، وأثر هذا التطور في حياة الدرس البلاغي في البيئة العربية والاسلامية ، ثم تبين لي أن هذا المدخل يحتاج الى اعادة النظر لما فيه من اجمال يحتاج الى تفصيل تيسر بـه مسائله ، ويتضح به غامضه ، وينكشف به ما استغلق من اشارات لا معدى من بيان أسبابها عللها ، ووصلها بأحداث الحياة من حولها ، كما أن الجزء التاريخي لحياة البلاغة يحتاج الى تنظيم جديد تتضح به الابعاد الزمنية التي سارت فيها حياة البحث البلاغي : كيف نشـأ ، وتدرجت حياته والعوامل التي أثرت فيه ، وسوف نحدد أنفسنا بالدرس البلاغي وحده وندع النقد ومسائله وقضاياه للمعنيين بالنقد العربي وتاريخه ، والواقع أن البلاغة العربية كان لها أثرها في حياة الفكر الاسلامي بعامة فلم تكن تعيش في البيئة الادبية وحدها معزولة عن البيئات الاخرى ، وانما استطاعت أن تغزو جميع هذه البيئات وأن تتخذ وسيلة للابانة والكشف

عن الفكر ومداخله سواء عند الادباء أم عند غيرهم من الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والباحثين في قضايا الاعجاز القرآني ، ثم الاصوليين الذين تصدوا لدراسة النص القرآني والاستنباط منه .

من أجل ذلك كان تاريخ البلاغة العربية والوقوف على معالم حياته ، ومدارج تطوره ، والبحث عن الروافد التي أثرت فيه فأمدته بغذاء جديد نما به وتطور على مدى الاجيال ــ مما ينبغي أن يلم به دارس الثقافة الاسلامية والعربية ، فلسوف يجد من هذا الدرس ما يعينه على ادراك الاصول التي قامت عليها حياته واستقام بها بناؤه .

ولا شك أن البلاغة بمعناها الواسع سواء أكانت عربية أم يونانية أم هندية تعتمد على اللغة ، وتستمد حياتها منها ، وتحاول جهدها أن تبرز طاقات هذه اللغة ــ في صورة عملية تطبيقية ، ولكل لغة نظامها الخاص ، وأصولها التي تنهض عليها حياتها .

والبلاغة التي نتحدث عنها ــ هي البلاغة العربية فهي تعيش في بيئة تتكلم العربية وتفكر بها وتنظم بها الشعر وتحبر بها الخطب ، وتدبج بها المقالات ، وتعبر بها عن واقع حياتها ، وما يحدث في هذا الواقع من تغير أو تطور تقضي به طبيعة ، التدرج الزمني ، في حياة المجتمع .

وجملة القول أن البلاغة العربية تستمد حياتها من حياة العربية

نفسها ، وما حدث لها من تطور في الدلالة ، أو المضمون ، وما وفد عليها من تيارات حضارية استجابت لها ، وتأثرت بها .

من هنا كان لا بد لدارس حياة البلاغة العربية من تمهيد عن حياة اللغة نفسها ، وتطورها الدلالي ، وعوامل هـذا التطور ، ذلك لأن الدرس البلاغي في عامة أمره دراسة لهذا التطور ، في المجاز والاستعارة ، والتشبيه ، والكناية وما اليها .

وقد قسمت هذا البحث الى ثلاثة أبواب :

١ ــ تحدثت في الباب الاول عن اللغة ، ووظيفتها وتدرج حياتها ،

٢ ــ وخصصت الباب الثاني ، لمعالم حياة البلاغة ،

٣ ــ وعرضت في الباب الثالث ، للمعنى وعلاقته بالبحث البلاغي .

والله أسأل أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم .

الباب الاول

(أ) الفرق بين اللغة والادب :

قبل أن نتحدث عن اللغة يحسن بنا أن نعرف اللغة وأن نفرق بينها وبين الادب •

ويكاد يجمع اللغويون سواء أكانوا عربا أم غير عرب على أن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وهي بهذا المعنى أو بذلك التحديد مما يمتاز به الانسان عن غيره من الحيوانات يقول Diamond ما ترجمته : ان النطق ملك للنوع الانساني وليس ثمة حيوانات أخرى سواه تملكه كما أنه ليس ثمة مجتمعات بشرية من التي وصل الينا العلم بها سواء أكانت ساذجة أم بدائية الا كانت لها لغة متكاملة ومعقدة ، والنطق هو الوصلة التي تربط بين أفراد مجتمع ما عن طريق الاصوات المتعددة التي ينتجها جهاز النطق •

ثم ان هذه الاصوات تؤلف كلاما يطول أحيانا ويقصر أحيانا أخرى حسب الحاجة اليه والدافع له ، والفكرة التي يريد صاحبها أداءها بها كما أن هذه الاصوات تختلف من بيئة الى أخرى اختلاف مقومات الحياة الاجتماعية ، والثقافية •

ولا شك أن الكلمة هي الوحدة الاولى في بناء اللغة ذلك لأنها

تدل على معنى ، وهي قد تتألف من صوت واحد وأغلب ما تتألف من جملة أصوات غير أن الوصلة الكاملة اليسيرة هي الجملة ، فالكلمة اذن هي اللبنة الاولى في تكوين اللغة وهي لا تستطيع أن تؤدي معنى كاملا أما الجملة فهي أيسر الابنية المعقدة في حياة اللغة وهـــي القادرة على أداء معنى يحسن السكوت عليه ثم ان اللغة بعامة تنقسم الى لهجات كل لهجة تتكلمها جماعة اختصت ببقعة من الارض وحتى اللهجة الواحدة قد يلحظ بين المتكلمين بها اختلاف دقيق في النطق بها ، أو في معاني الالفاظ أو التركيب النحوي ، غير أنه توجد تقسيمات أخرى للغة غير هذه التقسيمات اللهجية وهي التقسيمات التي تخضع لأثـــر العوامل الفكرية والثقافية ، والحرفية في حياة اللغة ، فلغـــة المفكر الفيلسوف تختلف عن لغة العالم كما أن لغة أصحاب الحرف والصناعات تختلف فيما بينها بحسب نوع الحرفة أو الصناعة التي يمارسها المتكلم بهذه اللغـــة .

وفي غمرة هذه الانقسامات اللهجية ــ توجد لغة مثالية وهـــي أحيانا تعيش قريبة من مقر الحكم والسلطان الذي تلجأ اليه الجماعة المتكلمة بهذه اللغة من وقت الى آخر وهي اذ تخاطبه في أمر من أمورها تستعمل هـــذه اللغة المثالية لأنها أقرب الى قلبه ، وأدنى الـــى حسه ووجدانه وربما صارت هذه اللغة فيما بعد ــ لغة طبقة اجتماعية واسعة.

امـــا الادب : وهو الكلام المكتوب فانه يخلق أو يؤثـــر بعض

ملامح خاصة من اللغة وليس كل ما كتب أو سجل كان أدبا فكثير مما وصل الينا مما سجلته الازمان البعيدة كان بعضه قانونا أو تصويرا لعادات وتقاليد باللغة الدارجة التي تستعمل في الحياة اليومية غير أن الشعر قد سجل هو الآخر في لغة مكتوبة وقد ظل آمادا بعيدة ترويه الالسنة ، وتحفظه الذواكر ، ونلحظ هذه الظاهرة في المجتمعات البدائية ومنها المجتمع العربي الجاهلي .

وبالرغم من كل هذا فانه توجد فوارق واضحة بين اللغة المكتوبة والمتكلمة اذ من الثابت أن اللغة المكتوبة تكون أكثر افتنانا ، ودقة .

فالادب اذن هـو اللغة الراقية التي تختار بعض الالفاظ المؤدية الموحية والاساليب الراقية وما عداها فانه يسمى لغة أو هو داخل في اطار اللغة العام وبهذه اللمحة عن اللغة والادب والفرق بينهما ، يحسن بنا أن ننتقل الى الكلام عنه ...

(ب) العربية ومراحل حياتها ثم تطورها الدلالي :

لا جدال في أن اللغة أقدر الوسائل التي عرفتها الانسانية في تاريخها الطويل للتعبير عن الافكار والانفعالات والعواطف وهي على قدرتها تمتاز باليسر والسهولة ، وان كانت تنقصها الدقة أحيانا ذلك لأن الطاقة اللغوية عند المستعملين لها تختلف من شخص الى آخر ، يقول Potter « ان المعرفة قدرة ولكن القدرة على اختيار الكلمات التي تؤدي بها هذه

المعرفة أقوى وأعظم سواء أكانت هذه الكلمات أريد بها الامتاع أم الاخبار أم الاثارة »[1] .

ولا شك أن سوء الاختيار لهذه الالفاظ من بين الاسباب التي تؤدي بالعمل الفني أو الادبي أو العلمي الى الفشل .

نشاة اللغة ووظيفتها :

لقد حرص البحث العلمي الحديث على أن يتعرف على المسالك التي سارت فيها حياة اللغة مذ كانت وظيفة اجتماعية يمارسها الانسان ليؤكد بها ذاته وليستشعر عن طريقها وجوده متفاعلا مع غيره ممن يشاركه هذه الوظيفة ، وكان من أثر هذا الاتجاه في درس اللغة أن وجدت تلك البحوث الكثيرة التي تعالج نشأة اللغة وتدرج حياتها ثم انقسامها الى فصائل لكل فصيلة خصائصها التي تميزها عن غيرها والتي تشاركها الاصل الذي صدرت عنه .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن النظريات المختلفة التي ظهرت بين علماء اللغة والتي استقرأوا جزئياتها من واقع الاحداث التي مرت بها حياة تلك الشعوب التي تتكلم هذه اللغات وتكتبها وتتخذ منها وسيلة لنقل الفكر واذاعته في الناس فان لذلك مكانا آخر .

---

(1) Potter : Our own Language P. 2-3

والذين يذهبون الى أن وظيفة اللغة وظيفة اجتماعية لا يختلفون وما ذهب اليه المناطقة القدماء والمحدثون من أن اللغة في مجالها الاجتماعي تخدم ثلاثة أغراض فهي أولا وسيلة لنقل الفكر وتوصيله وثانيا مساعد آلي للتفكير ثم هي ثالثا وسيلة لتسجيل هذا الفكر كي يعود اليه الانسان لحظة بعد أخرى ابتغاء دراسته والاستفادة به تجربة ماضية وتاريخا سالفا •

وهنا يفرق جفونز بين اللغة المكتوبة واللغة المتكلمة وأن اللغة المكتوبة فيها دقة ، وتفنن أما المتكلمة فانها تصدر غير مقدرة هذا التفنن ولا تلك الدقة ، ولكنها قد تكون أكثر تحديدا للفكرة لما يصحبها من اشارات تصدر عن اليد أو العين ، متممة لعرض الفكرة وموضحة لها •

ويرى برتراند رسل الفيلسوف المعاصر أن للغة وظيفتين جوهريتين هما التعبير والتوصيل •

ويرى يسبرسون[1] أ نوظيفة اللغة اجتماعية خالصة تعبر عن حاجات الانسان ورغباته مدفوعا اليها بحكم العادة •• ولكنه وسواه من اللغويين لا ينكرون أن اللغة تتبع حياة المجتمع ، وتتطور بها فهي الى جانب كونها تؤدي وظيفة اجتماعية تؤدي وظائف أخرى منها توصيل الفكر ، والتعبير عنه •

---

(1) Jespersoni Mankind nation and Individual P. 6

واللغة التي أريد الحديث عنها هي تلك اللغة الراقية التي تمثل أعلى مدارج التطور الفكري عنـــد الانسان لا هذه اللغة في بدائيتها عند الطفل كما يرى هؤلاء العلماء •

والعربية التي هي موضوع الحديث فرع من الدوحة السامية ولا يهمنا تأريخ هذا الجانب الآن وهو تكون هذا الفرع واستقلاله على مر العصور التاريخية اذ يقوم به العلماء المتخصصون •

كل الذي أهدف اليه أن أتناول بالدرس مرحلة من مراحل تطور العربية مذ كانت لغة أدب ارتفعت عـــن مستوى الحاجة الاجتماعية وأصبحت لغة توصيل ونقل على النحو الذي أشار اليه جفونز ومن تبعه من الدارسين •

مراحل تطور العربية :

نحن نعلم أن العربية أصبحت لغة أدب سجل بها أدباؤها أفكارهم وصوروا بها عواطفهم وكشفوا بها عن أحاسيسهم وهي لذلك اتخذت لها اتجاها خاصا يساير هذا التسجيل والتعبير وكما قال (ديامند) ، أن الاديب يخلـــق تعبيرات أو يختار بعض الملامح اللغوية لاتخاذها أداة للتعبير عـــن ذاتـــه ، ولا نزاع في أن اللغة تتبـــع التطور الاجتماعي والحضاري الذي يصيبه المستعملون لها والمتكلمون بها ، ويرى ديامند أن أسباب هذا التطور وعوامله تكاد تنحصر في :

١ ـ العامل التاريخي وهو من خصائص المراحل الباكرة في تاريخ اللغة وهو على سبيل المثال كما يقول بريل النطق الذي تتحول بـه صيغة الى صيغة أخرى ، وهنالك تطور من نوع آخر يرجع الى ذلك العامل التاريخي وهو اكتساب الالفاظ معاني مجردة بعد أن كانت لها دلالاتها المادية الصرفة .

٢ ـ أما العامل الثاني فانه يؤدي الى تطور أكبر وأعمق في حياة اللغة ويمكن تحديده بأنه الانتقال من التأثر بالمعاني المادية الى الافكار المجردة ويصف هذا العامل الفيلسوف الانجليزي Locke (لوك) في قولـه :

ان هذا يقودنا الى البحث عن نشأة أفكارنا ومعارفنا فانا نلاحظ أنا نعتمد على ألفاظ ذات دلالات محسوسة في التعبير عن أفكارنا وأن هذه الالفاظ أصبحت الى جانب تعبيرها عن ماديات تعبر عن مجردات .

ولا شك أن هذا التطور تحدثه عوامل كثيرة أهمها :

(أ) **التغير** [١] الاجتماعي الذي تتعرض له الامة والذي مـن أدق

---

(١) وفي ذلك يقول ديامند في كتابه اللغة تاريخها ونشأتها : ان مظهر التغير الذي دللنا عليه بكلمة **Ship, Shoe, House** يرينا معاني اللغة متغيرة ومتطورة ، دون أن نحس بهذا التغير أثناء حدوثه ذلك لانه يرتبط بالتغيرات الحادثة لبيئة الانسان وان هذا التغير يرتكز على الشيء المتغير ، وعلى وجهة نظر السامع ، ثم ان المظهر الثاني لهذا التغير بالنقل عن طريق الاستعارة أو المجاز **Metaphar** يرينا كيف حدث هذا التغير عن طريق المتكلم وأنه يعتمد على ادراكه أكثر من اعتماده على الشيء المعبر عنه .

Diamond «The History and Origin of Language» P.P. 176-178

سماته وأبرز خصائصه احساس الفرد بذاته وشعوره بكيانه ، وعند ذلك تتبدل نظرته الى المجتمع الذي يعيش فيه والى القيم الذي تحكم هذا المجتمع ، وتحدد سلوكه ، ونشاطه ، ثم ان هذا التغير لا يكون بنسبة واحدة في جميع القطاعات البشرية المتكلمة بلغة واحدة كما رأينا ، فان القيم التي يخضع لها هذا المجتمع تختلف في كل قطاع من قطاعات الحياة التي يمارسها هذا المجتمع ، ويصدر عنها سلوكه وتقديره للاشياء وحكمه عليها ، فالقيم الفنية الجمالية تعيش في قطاع الادباء ورجال الفن بعامة ويقومها الفرد أو الناقد المتذوق للاعمال الفنية معتمدا على المعايير التي وضعها هؤلاء الادباء واصطلحوا عليها ، والقيم العلمية تعيش في قطاع العلماء ، أصحاب التجربة العلمية ، ولكل من التجربة الفنية والعلمية مكانها في الحياة الانسانية ولغتها المعبرة عنها ، والكاشفة عن خصائصها وسماتها ، والدالة على أعماقها وأبعادها والتجربة الفنية مكانها الاحساس والشعور فهي تعيش في كيان الفنان وتتغذى بما يصيبه من اطلاعه وقراءاته وتظهر فيها آثار الانطباعات الكثيرة التي يحسها ويعيش فيها ، والتجربة العلمية تعيش في عقل العالم وتنمو في وعيه ثم تكون آخرا لامر قانونا عاما تفسر به ظواهر الوجود المادي تفسيرا تتكشف به الحقيقة ، وينجلي به ما غمض من جوانبها ، وما دق من أعماقها والذي يهمنا هنا التجربة الفنية لانها هي التي تصدر عنها الفنون المختلفة والتي تتخذ أدواتها من الكلمة أحيانا كالفن والادب

أو من النغمة التي تحدثها آلات الموسيقى أو من الريشة والالوان ، والظلال الى آخر هذه الفنون التي تنبثق عن التجربة الفنية • ولكل فن من هذه الفنون أصوله وقواعده التي تحكمه ، ويقوم على أساس منها ، واستجابة لها والفن كغيره يخضع لحياة الفنان وتطورها وتفاعلها بغيرها من الحيوات الاخرى ، وقد يظهر فنان في عصر ما فيبتدع أشياء وينقد ما استقر عليه الامر من الاصول والقواعد ويحاول أن يكون مجتهدا لـه رأيه وله حريته وله نشاطه غير مقيد بمواريث في الفن وأصوله •

وبرغم هذا كله فان القيم الفنية التي تخضع لها الفنون ومنها الادب لا تحيا هملا دون ضوابط أو حدود ، وانما تقدر حياة المجتمع من حولها وتستهدي حكمه عليها ، وتقديره لها ، ونقده اياها ومن هنا نشأ علم الجمال •

ونحن لا يعنينا من هذا العلم في حديثا أو بعبارة أدق فيما يتصل بالجانب اللغوي الذي تقول فيه سوى علم الجمال اللغوي اذا صح أن نطلق عليه هذه التسمية ويظهر أن القدماء من أسلافنا أحسوا أو شعروا بضرورة أن يكون لهذا الجانب من دراسة علم الجمال تسمية خاصة به وان كانوا قد أسرفوا في هذه التسمية فسموا ما يتصل بالعمل الجمالي الخاص بالتركيب مع ملاحظة حال المخاطب وأثره في نفسية المنتج

للادب ــ بعلم المعاني وسموا التصرف في فنون القول وضروبه للتعبير عن الفكرة بعلم البيان ، كما سموا أنواع الزخرف التي يصطنعها الادباء بعلم البديع •

(ب)   القرآن وأثره في تطور الدلالة العفوية :

نزل القرآن على الرسول فكان حدثا ضخما في نقله اللغة وتوجيهها الى أن تكون لغة فكر يخطط لمستقبل هــذه الحياة ويصلح واقعها ، ويدل على مكان العبرة في ظواهرها الكونية كما أنه الخطوة الاولى لوضع الاسس الكفيلة ببناء تشريع يفي بحاجات هذه الحياة ، وبهذه التشريعات اتجهت اللغة في عقول المسلمين وتفكير فقهائهم ومشرعيهم أن تكون لغة علمية تتحدد بها الفكرة تحددا واضحا وذلك لارتباطها بالحكم الذي يراد فهمــه وتطبيقه والحكم في جملة أمره لا يخاطب الوجدان وانما يخاطب العقل الذي هو مناط التفكير ودعامة الاقناع ووسيلة الفهم ومعيار طرائق تطبيقه وبذلك أنشأت اللغة تتجه الــى الاصطلاح في مجال العلم وفي سبيل التطبيق •

وهكذا عاش القرآن يؤدي عمله في هداية الناس وتقويم سلوكهم وتصحيح عقائدهم ، من التشريع لحياتهم بمــا يعين هذه الحياة على اطراد السير ، وسلامة القصد •

وقد كانت هذه اللغة قبل القرآن تعيش في صحراء تشتق معانيها

من الواقع المادي الذي يعيشون فيه ولذلك فانها لم تسم بهذه البيئة الى أبعد من هذا المستوى الا في عقل الشعراء وأذواقهم حيث يفسرون هذا الواقع تفسيرا ساذجا يسيرا في أبيات طرفة عن الحياة والموت ولم يكن لدى العرب يومئذ من منابع ثقافية تزود هـذه اللغة بزاد أعمق وأخصب ومن هنا كانت دهشتهم لما سمعوا القرآن فقد وجدوا فيه قيما فنية من نوع آخر لم يتح لهم أن يعرفوها أو يتصلوا بها ومن هذه القيم ما يمس الصورة أو الاطار الفني الادبي ومنها ما يمس الفكرة ، ومنها ما يتصل بالتصرف في اللغة من الاشتقاق ، وتعدد الصيغ ثم من ناحية التركيب واختيار الكلمات على نحو يجمع بين انارة العقل والوجدان جميعا سواء في ذلك الوحي المكي أم المدني ، ومن هنا كانت الوحدة الفنية بأدق معانيها هي السمة البارزة لهذا النظم الالهي بالرغم من أن الوحي المدني يعرض ضروبا من الفكر وألفافا من المعاني مخالفة لما يعرضه الوحي المكي ولكنه السمو باللغة الى مستوى يجعلها متكافئة مهما تشعب الموضوع واختلفت طرائق المعاني وبهذا كان القرآن يمثل مرحلة أخرى من حياة اللغة .

والقرآن بهذا كله يمثل ناحيتين : هما الناحية الواقعية التي يحياها المجتمع العربي في صحرائه ثم هذه الناحية المثالية التي تخطط لمستقبل الحياة ، أما الشعر الجاهلي فلم يكن له الا تصوير هذا الواقع والتحدث

عنه ومن هنا شاع فيه الوصف المادي للسفر والاغتراب والرحلة والحرب وأحوالها والكرم في آثاره البادية ومعالمه الشاخصة ، والجمال في قوام العذارى وخدود الحسان وتمنع المترفات الناعمات الى غير أولئك مما لا يعدو الحس أو يتجاوزه الا يسيرا .

وقد أدى نزول القرآن على هذا النحو الى أن تغيرت مفاهيم كثيرة من ألفاظ اللغة التي عبرت عن مقررات من هذا الدين عقيدة أو عملا وكان ذلك أول باب من أبواب التجوز في حياة اللغة بعد الاسلام فمن ذلك المؤمن والكافر والمسلم والمنافق والصلاة والزكاة والحج ، والعمرة والجهاد ، والظهار والطلاق وما اليها من الالفاظ التي صارت فيما بعد حقائق يدل بها على أبواب العبادة وطرائق التشريع .

ولم يقف أثر القرآن عند هذه الناحية بل انه أبطل أيضا كثيرا من الالفاظ التي كان الجاهليون يستعملونها كالمرباع والنشيطة والفضول والاتاوة والمكس كما أبطل الالفاظ التي كانت تستعمل في مخاطبة الملوك وذوي السلطان كما نهى الرسول عن استعمال الاساليب المؤدية الى التشاؤم كقولهم (خبثت نفسي) وما اليها من العبارات .

وهذا كله ينتهي بنا الى البحث عن :

اللغة التي نزل بها القرآن :

أهي لغة قريش أو لهجة قريش أم اللغة العربية بمعناها الواسع ؟

لم يصل الينا ما نستطيع به الاجابة عن هذا السؤال وهو ما يمكن أن نميز به بين لغة قريش وغيرها من لغات العرب غير أن دراسة حياة هذه القبيلة قد تكشف عن طبيعة اللغة التي تدل اليها وتنسب لها .

فقد كانت قريش تسكن مكة وكانت ترحل الى الشمال والى الجنوب في رحلاتها المتتابعة صيفا وشتاء وكانت القبائل تفر الى مكة ابتغاء التجارة والحج جميعا وكانت قريش تتصل بهذه القبائل وتعلمها مناسك الحج ، وتحكم بينهم فيما يعرضون عليها من خصومات ـ وكان طبيعيا وذلك مكانها من العرب ومن بيت الله الذي يحجون اليه يلتمسون في رحابه الطمأنينة والامن ويجدون في جواره برد السلامة والعافية أن يقوي اتصال هذه القبيلة بغيرها من القبائل على اختلاف درجاتها وتباين اماكنها وأصقاعها وأن تأخذ من لغاتهم أصفاها وأرقها حسا ، وأبينها دلالة ، فاجتمع اليها على مر الزمان واختلاف الاعصار لغة امتازت عن لغات العرب بوفرة الالفاظ المختارة ، وربما كانت لغة قريش هي اللغة المثالية التي أشار اليها (ديامند) لما كان لهذه القبيلة من سلطان وقوة ، ولما اختصت به من الفضل بسكناها مكة وجوارها بيت الله ، ومن هنا صارت هذه اللغة أصلح اللغات لأن ينزل بها كتاب الله فقد برئت من عنعنة تميم ، وعجرفية قيس وكشكشة أسد ، وكسكسة ربيعة كما برئت من كسر أول المضارع الذي شاع في لغة قيس وأسد وفي أول بعض

الالفاظ كشعير وبعير .

ويظهر مما أشار اليه ابن فارس أن العربية التي كان يتكلم بها العرب قبل الاسلام كانت قد أنشأت تأخذ صورة تكاد تكون واحدة لا فرق في ذلك بين شمالي الجزيرة وجنوبيها ومرد ذلك الى طبيعة الاحتكاك بين القبائل واجتماعها في الحج وتنافرها في الاسواق ، وان ظلت كل قبيلة لها لهجتها الخاصة التي يتم بها التفاهم بين أفرادها فيما يعن لهم من شئون الحياة رجاء انتظام أمرها وتدبير أمور العيش فيها ، ومعنى هذا أنه كانت هنالك لغتان : لغة للحياة التي يعيشها الناس لا فرق فيها بين سيد ومسود ، ورئيس ومرءوس ، وهنالك لغة عالية أو مثالية وهي التي وصل الينا فيها هذا الشعر وتلك الخطب التي وردت الينا صحيحة السند مبراة من الانتحال ، على أن هذه اللغة العالية لم تخل من التأثر ببعض الظواهر اللغوية الخاصة ومعنى هذا أن هذه اللغة العالية كانت هي الاخرى تنقسم الى قطاعات لغوية فتارة يقولون لغة أهل العالية ، ولغة تميم ، ولغة قضاعة وما تلك القبائل الا مجموعات تشترك في الارض والعادات والتقاليد ونظام الحياة ووسائل كسب العيش فيها ولغتها ليست الا تسجيلا لواقع هذه الحياة بمقرراته وتطبيقه لقواعد السلوك اللغوي فالنحاة يقررون حين يتحدثون عن الادوات

(١) ابن فارس الصاحبي ص ٢٣ .

التي تعمل عمل ليس في أنها ترفع المبتدأ وتنصب الخبر •

أنها أربع وهي : ما ولا ولات وان ثم يفصلون القول فيها فيقولون ان أهل الحجاز كانوا يعملون ما عمل ليس وبها ورد التنزيل في قوله تعالى ما هذا بشرا وفي قوله تعالى ما هن أمهاتهم ان أمهاتهم الا اللاتي ولدنهم ، أما بنو تميم فلا يعملونها ، وهي في كلا القطاعين تنفي بها النسبة بين طرفي الجملة ، فاذا كان أهل الحجاز يعملونها وتميم لا تعملها فما هو موقف بقية القبائل الا أن يقال ان غربي الجزيرة ووسطها يعملانها أما شرقيها فلا يعملها •

وهنالك أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة نجدها منبثة في كتب النحو واللغة مما يؤكد أن العربية قبل الاسلام كانت لها لغة مثالية احتفظت ببعض الخصائص اللغوية أو بعض السلوك اللغوي لقطاع من القطاعات•

دراسة النص القرآني وأثرها في تحديد الدلالة :

لقد أثارت دراسة النص القرآني مشكلة المعنى ، وعلاقتها باللفظ الدال عليها ، والواقع أن هذه المشكلة شغلت الدارسين قديما وحديثا وهم في عرضهم لها يختلفون في تصورهم للمعنى ، ثم العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وبين عملية التفكير الانساني وقد استطاع العالم اللغوي (أولمان) أن يناقش هذه المسألة وأن يخلص الى كيفية تحديد العلاقة بين اللفظ والمعنى فقال :

ان المعنى هو العلاقة بين اللفظ والمدلول وهي علاقة تمكن كلا منهما من استدعاء الآخر وقد ترتب على ذلك أن الكلمات لفظ ومدلول ، ومعنى وان المعنى هو هذه العلاقة بين اللفظ والمدلول ، وقد اعتمد أولمان في تقرير هذا كله على تلك المحاولة التي قام ريتشاردز وأوجدن في كتابهما معنى المعنى وقد مثلا لهذه العلاقة بمثلثهما الاساسي والذي يقوم على ثلاثة أضلاع Basic triangle وهو عبارة عن الكلمة المنطوقة ، والمحتوى العقلي الذي يحضر في ذهن السامع ثم العلاقة المفترضة ، والاصوليون المسلمون أقاموا دراستهم لهذه المشكلة على هذا الاساس الذي أقام عليه أولمان دراسته .

فالفخر الزازي في مقدمة تفسيره يرى أن دلالة الالفاظ ليست ذاتية وأنها قائمة على هذه العلاقة بين الفكرة واللفظ ، وقد استنبط ذلك من أن هذه العلاقة تختلف من عصر الى آخر ، ومن متكلم الى آخر ، ولو كانت هذه العلاقة أي المعنى ثابتة ما اختلفت اللغة ، ولا تدرجت حياتها ، ولكانت باقية على ما كانت عليه منذ الازل ، ويظهر أن هذا التصور لتحديد العلاقة بين اللفظ والفكر والمعنى كان شائعا في العصور الوسطى ولقد صاغها روبرت براونج صياغة شعرية في قوله « يستطيع الفن أن ينبيء عن الحقيقة ، اذ لا جدال في أن الافكار تتولد عن الاشياء بطريقة غير مباشرة ، كما أنه ليس محالا وجود الفكرة دون الاعتماد

على الكلمة • ــ ومهمة اللغوي أن يحدد العلاقة بين الاشياء والافكار ، واللغة وأن يكشف عن صحة هذه العلاقة أو فسادها ، ثم ان الغزالي وهو أصولي متكلم فيلسوف ، صوفي قد عرض لهذه المشكلة رابطا اياها بقوى الانسان العاقلة والمتخيلة فقال ان دلالة الالفاظ على المعاني لا تتضح الا بتقسيمات ثلاثة :

١ ــ دلالة اللفظ على المعنى •

٢ ــ الالفاظ بالاضافة الى خصوص المعنى وشموله •

٣ ــ الالفاظ المتعددة بالاضافة الى المسميات المتعددة •

ثم يقسم هذه الاقسام الثلاثة فيقول : ان القسم الاول يشمل دلالة التطابق والتضمن والالتزام •

أما القسم الثاني ، فيقسم فيه الالفاظ الى ما يدل منها على عين واحدة ويسمونه المعين ، أو بعامل مساعد آخر كاسم الاشارة وهو يعد في هذه الحالة جزءا من اللفظ ، أو ما يدل على أشياء كثيرة تشترك في معنى واحد ويسمونه المطلق •

أما ما دخلت عليه أل من الالفاظ مجردا عن الاشارة فانه صالح لان يدل على أشياء كثيرة ، سواء أكانت موجودة في الخارج ، أم صالحة لان توجد •

أما القسم الثالث فانه يتناول فيه الالفاظ بالاضافة الى المسميات المتعددة ، وهي أربعة :

المترادفة والمتباينة والمتواطئة والمشتركة •

فالمتداونة هي الالفاظ الدالة على مسمى واحد كالخمر والعقار ، والليث والاسد ، والمتباينة هي المختلفة ، والمتواطئة هي التي تدل على أشياء متغايرة العدد ، ولكنها متفقة بالمعنى كرجل ، والمشتركة هي الاسماء التي تطلق على مسميات مختلفة •

فاللغة اذن عند الاصوليين تبدأ من نقطة الدلالة الاولى مقدرة ذلك التطور ، في الحدود التي رسموها •

المتكلمون والفقهاء :

أما تصور أصحاب الاعتقاد والنظار للغة فانه يختلف عن هذا التصور في بعض وجوهه ويحسن بنا أن نقرر أولا أن تصورهم للغة استهدى في جملته أمرين :

أ ــ أن اللغة انما تحاول تقريب المعاني المجردة في صورة أدنى الى التصور البشري ، حتى يمكن فهم المراد من الالفاظ الدالة عليها •

ب ــ أن هؤلاء المتكلمين أو النظار يضعون ــ في تقديرهم ــ

التطور العقدي الذي عرضته الكتب الدينية السابقة على القرآن بما هي تسجيل دقيق لمراحل التدرج الذي مر به العقل البشري ، والكلمة المعبرة ليست الا رمزا للمعنى ثم ان المعنى الذي يحاول المفسر أن يصل اليه ينبغي أن يساير هذا التطور الذي انتهت اليه الحياة العقدية التي نزل القرآن مصورا لها وكاشفا عن مدارج حياتها •

فتصور المتكلمين يبدأ من النهاية لا من البداية •

أما الفقهاء فان عملهم يقتصر في استنباط الحكم لتطبيقه على ظاهر السلوك الانساني سواء أكان هــذا السلوك يعتمد على اللسان أم الجوارح ، أما القلب وحركاته وما يجري فيه من أنواع النية ، وما يعزم عليه من ضروب الفعل ، فلا عمل للفقيه فيه ولا حكم له عليه الا حيث يدل بعض السلوك على نوعية النية ومقصد صاحبها ، ولهــذا كان مــن عملهم التوفيق بين النص ، ومــا تعارفت عليه البيئات ممــا لا يصادم أصلا من أصول الشريعة ، ولا يعطل مقصدا من مقاصدها ، ومن هنا ارتبط عملهم باللفظ ، لأنه الوسيلة الدقيقة فيمــا يقدرون للتعبير عن هذه النية وان أدى هــذا الى المفارقة الكبيرة بينه وبينها ، وهم يتركون للانسان المتدين بهذا الدين أن يقدر نوع المسئولية والآثار المترتبة عليها لما بينه وبين ربه ، ويقدرون أيضا أن سلوك المتدين هو

ركيزة المسئولية المنظورة ، فيما يصحح العلاقات والروابط بينه وبين من يشترك معه في الحياة على الأرض •

أما المتكلمون فأساس عملهم هو النية المصححة للاعتقاد ، والكافلة له الحيوية التي تحكم هذا السلوك ، وتدبر من أمره ، وتحميه من التهافت والتردي ، وتضمن له البقاء المؤدي الى سلامة العاقبة ، وصحة الغاية •

ومن هنا كان اللفظ عندهم أساس المسئولية الظاهرة بالاضافة الى تقدير النية في الحكم على سلامة الغاية • وكلا الفريقين يضع في اعتباره علاقة اللغة بالارادة الالهية وبما تدعو اليه هذه الارادة من الحق والعدل ، وما اليهما من الأصول التي هي ، في الواقع ، مشتقة مما وصف الله تعالى به نفسه •

فاللغة عندهم ترتبط بأمرين : أحدهما : غيبي يرتفع بغيبيته الى ما بعد الطبيعة ، ويتجاوز بما يستشرف اليه حدود الحس ، وثانيهما : ذلك الرسول الذي تلقى هذا النص عن ربه وبلغه اليهم ، وناط به بيانه الى الناس ، ولا شك أن هذا النص حين نزل كان يشير في كثير من الأحيان الى الحال النفسية التي كان يتعرض لها الرسول حين تشتد به الأزمة ، أو تجتمع عليه الصعاب ، أو يبلغ من نفسه الأسى مبلغ الحسرة على عناد قومه ، وتأبيهم على قبول دعوته ، كما في قوله تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » •

وقد يدعوه الى الرفق بمن آمن بدعوته ، وأن يتجه اليهم ، ويبذل

لهم مـن نفسه لقاء ايمانهم به كمـا في قوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيـاة الدنيـا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبـع هواه وكان أمره فرطا » •

مـن هنا كان النص القرآني ــ في بعضه ــ حديثا عن السماء ، وعن الآخرة ، ثم في بعضه الآخر عن الرسول ودعوته ، وجهاده في سبيل هذه الدعوة ، وتصويرا دقيقا كاشفا لحاله النفسية حيال الصعاب التـي عرضت له ، أو المضايق التي أطبقت عليه ، ثم هو في بعضه الآخر حديث عـن الأرض بحملة ما فيها مـن النظم والعقائد والأديان والشرائع •

ويبدو أن المتكلميـن وقفوا جهدهم على الآيات التي تعرض لهـذا الغيب وتحاول تقريبه الى الناس في لغة أقرب الى حياتهم المادية التـي يعيشون فيها ، ثم الى تصوراتهم عـن هذه الحياة •

أما الفقهاء فان عمـلهم يكاد يتحدد في الآيات التي تعرض هـذه الشرائع والنظم متخـذة مـن ذلك العرض سبيلا الى تقرير ما تـراه مما يلائم حيـاة المجتمع البشري • وقد بلغت مـن التدرج حدا يأذن بذاك التشريـع والتخطيط ــ في صورة لا يعتريها اضطراب أو اهتزاز ــ مهمـا يكـن من أمر هذه الحياة في مستقبلها القريب أو البعيد •

وقد رأينا أن ــ هؤلاء وأولئك ــ بتقديرهم لطبيعة الكتاب الديني ووظيفته ، لهم تصورهم الخاص ، وادراكهم المحدد لطبيعة اللغة ، فـي الابانة عـن تلك المعاني كلها •

وبين المتكلمين ظهرت مشكلة اللفظ والمعنى ـ على نحو يختلف عما أثير في بيئة الأدباء ـ كما أن هذه المشكلة نبتت أيضا في بيئة الفقهاء على نحو آخر غير الذي اشتهر في بيئة المتكلمين والنظار وان كان الأساس الذي ترتكز عليه المشكلة يكاد يكون واحدا ، اذ أن التأويل الذي يعتمد عليه متفهمو النصوص هو السبيل الذي به تدرك ويوصل الى المقصود منها •

وما دام الأمر كذلك ، فانا في صدد عرض هذه المشكلة نبدأ أولا ببيئة الفقهاء •• واذا كان تناول تلك المشكلة يقتضي أن نبدأ بالحركة الفقهية مذ كانت الى أن استقرت المذاهب وتحددت أصولها ، وتشخصت معالمها •

ولقد انتهى بنا التتبع لهذه الحركة انها انقسمت الى اتجاهين أساسيين الاتجاه الأول وهو أسبق هذه الاتجاهات وأعمقها أثرا في الفكر الاسلامي بعامة ، وهو الاتجاه الذي يعتمد على أصلين ، أولهما : النص بما هو ألفاظ تروى ، وثانيهما : الادراك لمضمونه ، مقدرا تدرج الحياة الانسانية وما تتعرض له من تقلبات وأحداث ، فاللفظ عندهم دليل هذا المضمون ، ثم ان هذا المضمون ـ لا يتحدد ـ بالمعاني الأولى للألفاظ وانما يضيف اليها ما يجد في الحياة من شئون لا بد من أن يقال فيها حكم الله ـ فالمضمون اذن يتطور مع الحياة ، ويسير معها ـ ولكنهم خصوا هذا التطور ـ بالألفاظ ـ التي لها ارتباط بالمقدرات أو العادة المتحكمة في سنن الاجتماع الانساني • أما الألفاظ التي تحدد

عملا شرعيا بينه الرسول ، كالصوم والزكاة والحج وما اليها من أصول الاسلام دينا مستقلا يشرع للانسانية جمعاء ــ فيما يتصل بالعبادات ــ فلا مجال للقول بالتطور ــ في ألفاظها ــ وما دعا اليه الأستاذ أمين الخولي ــ في كتابه المجددون في الاسلام في المجال العبادي على حد تعبيره ينبغي أن يتلقى بكثير من الاحتياط والحذر فلا يؤخذ على عمومه بهذا التوسع الذي يشير اليه كلامه •

ولم يقل المشرعون الاسلاميون عامة بهذا التطور في المضمون وانما قال به طائفة كبيرة منهم ، وهنا نلتقي باتجاهين متدابرين : الاتجاه الأول يمثله الحرفيون ، وهم ظاهرية الفقهاء ، وأولئك يستمسكون بالمعنى اللغوي الأول للألفاظ ــ بما هو حقيقة يمكن أن تنطبق على كثير من أفراد المعاني وجزئياته وقصدهم من ذلك أن يردوا فكرة القياس ــ في استنباط حكم جديد ــ ومن أمثلة ذلك قولهم في الخمر وتحريم كل مسكر لأن لفظ الخمر يمكن أن يشمله باعتبار أن الخمر هو كل ما خمر العقل وصده عن مباشرة عمله • ومن ثم فلا ضرورة للقول بالقياس واتخاذه مصدرا تشريعيا حين لا يوجد نص يقضي به في القضية المعروضة أو المشكلة الطارئة • أما غير الحرفيين ويمثلون عامة الفقهاء ، فانهم يقولون بالتطور ولكنه تطور يعتمد في تقريره على ثلاثة أصول :

١ ــ المعنى الأول للألفاظ •
٢ ــ العرف •
٣ ــ الشرع •

فاذا لم يكن في اللغة تحديد لمدلول الألفاظ لجأ الفقيه الى الشرع فان حدده أخذ بتحديده ووقف عنده ، وان لم يكن اتجه الى العرف — وهنا تظهر فكرة التطور في دلالات الألفاظ بأوسع معانيها ، وأرحب آفاقها .

وبهذا التحديد ، ووسائله لدلالات الألفاظ ، يضطرب الأمر بين هذين الاتجاهين — فالقائلون بعموم لفظ الخمر انما اعتمدوا على المدلول اللغوي للفظ — بعد أن استقر في المعاجم وتداولته استعمالات كثيرة يجمع بينها هذا المعنى — وهو لا شك مرحلة من مراحل التطور الدلالي تركزت أصولها بعد استقراء الاستعمالات المختلفة للفظة في بيئات متعددة بعضها يقصرها فيه على ما كان من عصير العنب وبعضها يتوسع فيه فيشمل من أنواع المسكرات ما انتهت اليه صناعة المسكرات سواء أكانت وليدة البيئة التي عاش فيها الفقيه أم مجتلبة من موضع آخر .. ونستطيع أن نقيس على هذا اللفظ ما أشبهه مما ورد في آيات تشريعية كالربا مثلا ، وهنا نلحظ اختلافات واسعة حول مفهومه وتطور هذا المفهوم .. وهل نقف في تحديد معناه عند المتعارف عليه أيام نزول القرآن مما جرى به التعامل في البيئة العربية أو تتوسع فيه فيشمل كل ما كان فيه زيادة عن الأصل .. وهل يقتصر فيه على العقود القائمة بين طرفين أو بين طرف محدد بشخصية وبين جماعة لهم شخصيتهم المعنوية .

ولكن هذين الاتجاهين يبدوان دائما — في تفسيرهم لهذه الالفاظ وتحديد مدلولاتها منذ حياتها الاولى — وهم يقدرون الى ذلك تغير

الاستعمال واختلافه وما قد يطرأ عليه من زيادة في المعنى أو نقص فيه ، وان اختلفت بذلك أقضيتهم وأحكامهم •

وقد أشرت من قبل ـ في بحث مضى ـ الى هذه اللفتة القوية التي لفت اليها ابن القيم في اعلام الموقعين وفيها يطلب الى متفهم النص التشريعي أن يكون دقيقا في تحديد مدلولات الألفاظ وأن لا يغفل النظرة الواعية الى طبيعة التطور الدلالي ، مقدرا الى ذلك خطوات هذا التدرج ، وعوامله ، وملابساته •

والحق ـ أن التطور الدلالي ـ يحمل معه تغيرات حضارية أو عمرانية واسعة ـ ولهذا التغير أسبابه ودوافعه التي يكشف عنها المؤرخ الدقيق ، ولا ضير في أن نشير اجمالا الى جملة هذه العوامل لما لها من وثيق صلة بما نحن فيه ، فاذا كانت اللغة في أخص وظائفها وعاء الفكر الانساني وهذا الفكر بما هو نتاج يرتكز على دعائم من التدرج العقلي للأمة ، فان هذه اللغة لا بد أن تساير هذا التدرج حتى تكون متكافئة واياه ، ثم ان الآثار المادية للبيئة التي تعيش فيها من خصوبة أو ترف ، أو رقة وخشونة أو ملاحة وجمال أو قبح وسوء ـ كل أولئك يحدث أثره في حياة اللغة ، بل ويطور من دلالة ألفاظها ، كما يحدث أثره في النظم نفسه ، يقول الجرجاني : « فلما ضرب الاسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادي الى القرى وفشا التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله وعمدوا الى كل شيء ذي أسماء كثيرة ، فاختاروا أحسنها سمعا وألطفها

من القلب موقعا ، والى ما للعرب فيه من لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها كما رأيتهم يختصرون ألفاظ الطويل فانهم وجدوا للعرب فيه نحوا من ستين لفظة أكثرها بشع شنع .

وما يذهب اليه الجرجاني في هذه القولة تؤيده الدراسات اللغوية الحديثة الكاشفة عن أسباب اجتماع فريق أو طائفة على لغة تلائم طبيعة تدرج حياتها حتى تكون على شيء كثير من اليسر والسهولة .

وما يذكره الجرجاني ايضا معللا به ذلك التطور الذى الم بحياة العربية له دلالته على الخطوة الجديدة التي خطتها حياة هذه اللغة على ألسنة أصحابها ـ وفي استعمالهم ـ بعد أن وحدها القرآن ، وجمع بين ما يبدو من أطرافها ـ من تباعد ـ مرده الى الحياة القبلية التي كان يعيشها العرب في جزيرتهم ، وهنا ينبغي أن نلفت الى ظاهرة أخرى ، وهي أن العربية لغة متكلمة ومكتوبة أضحت تختلف في كثير من ظواهرها عن اللغة التي تجمع وتدرس ـ فاللغة المتكلمة تحرص على ائتلاف الجرس ، ويسر التعبير ، وصفاء الرونق ، وخفة الاداء ، فهجرت كل خشن ، وتجافت عن كل ما يؤذي حركات الصوت وتردد النفس ـ وهكذا كان هنالك جماع للغة بتلك السعة ـ ومستعملون لها ـ والأولون هم اللغويون والآخرون هم الأدباء ، وعامة المؤلفين ، واللغة المتطورة ليست الا الأولى ، ذلك لان المجتمع الحي النشيط العامل ، هو الذي يعطي اللغة امكانيات البقاء والتطور ، ويمنحها الحياة الخصبة ويمدها بأسباب الاتساع الدلالى الذي

---

(١) الجرجاني في الوساطة ص ١٨

يمكن أن تساير به قافلة الحياة في شتى أوضاعها ومختلف ميادينها • وما من شك في ان من أدق مظاهر التطور الحضاري للأمة ، التشريع الذي يحكم سلوكها ، والسلوك لا يقف نشاطه عند حد متفق عليه ، وانما يتغير ويتطور ، وهو في تغيره وتطوره يستشرف دائما الى المزيد من الاحكام ــ وهكذا تطورت العربية لأنها اللغة التي تعبر عن أصول هذه الأحكام ، ومنازع ذلك التدبير •

ولهذا التطور علاقته بالاشتقاق ، وهو الظاهرة التي أصل النظر فيها لغويو العرب •

وليس الاشتقاق بدعا اخترعه الدارسون العرب كما اخترعوا الظواهر الاعرابية عند بعض الباحثين ، وانما هو الرباط الدقيق الذى يجمع المتفرق من شعاب اللغة حتى تكون أداة التعبير ووعاء الفكر ، ومعرض الاحاسيس والانفعالات ــ كل الذي صنعه اللغويون العرب أنهم اكتشفوا هذا الرباط وحددوا مسالك سيره ، ومكنوا له من أن يمارس عمله في التمكين للغة من مسايرة الحياة ، وملاحقة التطور ، ومتابعة الاختراع مهما تشعبت مسالكه ، وتدابرت طرائقه •

وهنا نلحظ نوعا من الخصومة العقلية والذهنية تحتاج في تفسير وجودها الى بحث واستقصاء ، ذلك لان هذا التفسير فيه نوع من الرد على أولئك الذين يتهمون العقلية العربية بأنها عقلية تجنح في تفكيرها الى الجزئية التي لا تدرك القواعد الكلية التي يمكن عن طريقها تصنيف الفكر البشري تصنيفا يعينه على التطور والارتقاء ، ويحمله على ان يأخذ نفسه

بأسباب التقدم،فقد كان الاشتقاق اذن ظاهرة دراسية يجتمع في شعاب اللغة ألفاظا ودلالات • فأما تقسيم الاشتقاق الى هذه الاقسام من اشتقاق صغير وكبير وأكبر ، فله دلالته على فكرة الكلية التي يمتاز بها الـــدارسون العرب من اللغويين ، ولا شك في ان الاشتقاق الصغير ـ وهو اول مراحل التفكير الاشتقاقي ـ قد استطاع أن يمكن اللغويين من معرفة الأصول الدقيقة لنشوء المعاني وتطورها ، وقد تنبه الى شيء من ذلك الصرفيون فقالوا ان لهذا الاشتقاق دوره في معرفة ما أصاب المادة اللغوية مـــن القلب المكاني كما في أيس ويئس ، ونأى وناء ، وجاءه ووجه وريم وآرام ورأي وآراء ، وما الى ذلك مـــن الألفاظ التي يسوقونها أمثلة واضحة الدلالة على شيء من مراحل هذا التطور ودوافعه • ويمكن أن يفسر على هدى منهـــا بعض النصوص الدينيـــة ، أو التي ارتبطت بالفكر الديني الاسلامي ، وهنا يرد هذا السؤال : هل ظاهرة الاشتقاق أخصبت اللغة ـ بما هي لغة ـ خصوبة جديدة ؟

لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال الا اذا حددنا نوع الخصوبة التي يكاد يجمع عليها لغويو العرب•

فنقول : هل الخصوبة في ابتداع الفاظ جديدة لا تعرفها اللغـــة او أساليب يتصرف فيها صاحب اللغة ، والمستعمل لها ، فتتجدد هذه الأساليب وتنمو على هدى مـــن هذا الاشتقاق ؟

فأما القسم الأول : فلا نكاد نظفر بجديد من الألفاظ يعتمد في وجوده على الاشتقاق ، لأن الصيغ الاشتقاقية التي تصاغ فيها الألفاظ لا تكـــاد

تختلف على مر الايام ، ولا ضرورة هنا لان تتكثر بالقول في المصطلح الأوروبي لكلمة Moropholog .

وما اليه فصيغ اسم الفاعل واسم المفعول واسم الزمان والمكان والمصادر وما اليها لم تختلف منذ وصلت الينا نصوص اللغة ، وقد تركزت فيها هذه الأصول والقوالب الاشتقاقية ، بقي الشق الثاني من الخصوبة وهو تنوع الأساليب الجديدة وتلك متروكة لقدرة الاديب على التصرف في النظم اللغوي الذي يعطي العمل الأدبي امتيازا وتفوقا ، والذي يختلف به أديب عن آخر ، وتظهر فيه سمات دقيقة لبراعة هذا الاديب أو ذاك ، غير ان الاشتقاق بما هو تحديد لمراحل التطور الدلالي قد اختلف النظر اليه بين الدينيين والأدباء ، فالأديب كما نرى يحرص على أن يدرك مراحل هذا التطور حتى يعرف أين يبدأ نشاطه الادبي وفي أى المسالك يسير •

اما الديني — الذي حدد نشاطه باستنباط الحكم العقدي أو التشريعي — فان هذا التطور لا يعنيه الا اذا ارتبط الحكم بطبيعة الحياة الاجتماعية التي يعيشها المجتمع •

وانظر في ذلك حديثهم عن الربا ، والمضاربة في البيع ، والخيار في الشرط وعند العيب ، وسوف تحس أن الدلالات الاولى لهذه الالفاظ قد فقدت أهميتها وخطرها عنده وبقي ذلك المعنى الذي يمارسه القوم نشاطا تجاريا أو اقتصاديا •

أما الاديب ، فانه يستعمل هذه الالفاظ استعمال العربي لها ، حتى اذا جنح الى الاصطلاح الفقهي أحس أن الفكرة الادبية عنده انشأت تهتز

وتضطرب ، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته الى شيء من ذلك حين عرض لاستعمال اللغة ، وان كـان قد أكد أصالة هـذا التطور ، وآثـاره القوية في اختلاف استعمالها من بيئة الى أخرى فقد ذكر في الفصل الذى عقده عن الادب واللغة ما قد يضفيه استعمال للفظ له صلة بدلالات شرعية أو دينية على العمل الادبي من احساس لعلمية الجافة التي بهـا يجف ماؤه ، ويذهب رواؤه •

وهنا نظفر باتجاهيـن عند الأدباء والدينيين : فالأديب يستعمل النظم أما الديني فيستعمل البرهان ••

فما هو النظم اذن ؟ وما هو البرهان ؟

وقبل أن تتولى بيان هذيـن اللفظين ، ومدارج تطورهما في البيئة الاسلامية وما كان لهمـا من أثر في حياة الدرس اللغوي ، نعرض لأمور كانت أشـد خطرا وأبلغ أثرا وهي الانسان ثم الفكـرة والعلاقـة بين الانسان والفكـرة •

الانسان بما هو كائن اجتماعي يمتاز بخصائص ينفرد بها عن سواه مـن المخلوقات التي تشاركه صنع الحيـاة على الأرض •

وأول هذه الخصائص الذهنية التي تساعده على التحليل والتركيب والابداع والابتكار والتفسير والتأويل • ثم ذلك الوجدان الذي يتأثـر وينفعل فيعطف ويقسو ، ويرحم ويظلم ، ويعز ويهون وما الى ذلك مـن الصفات المتقابلة التي يتأثر بها كل وجدان فيهفو اليها تارة ، ويعزف عنها أخـرى حسبمـا أتيـح له مـن قوة الارادة ، وحصافة الرأي ،والقدرة

على التفسير الناقد للظروف والملابسات التي تحتف بموقف من المواقف التي تعرض له ، ثم له فوق ذلك الروح ، وهو ذلك الخلق الغامض الذي لم تستطع الفلسفة الانسانية منذ أقدم عصورها أن تصل الى شيء من خصائصه الجوهرية . وقد اتجهت النصوص الى مخاطبة هاتين القوتين : الذهنية والروحية ، وكانت اللغة للتعبير عن وقع الحياة عليهما واحساس كل منهما بهذا الوقع الذي تعيشان تحت أثر منه .

فأما الفكر أو المعاني ، أفكانت يا ترى من اختراع هاتين القوتين ، أم هي كوائن مستقلة تتصيدها هاتان القوتان فتعيش في أرجائهما ، حتى تحين الفرصة لابرازها على نحو ما .. وهنا يكون للغة دور وظيفي في هذا الابراز وذاك الاعلان .

لا سبيل الى القول الفصل في الحكم على هذه الأشياء كلها ، غير أن الجاحظ ومن لف لفه من أدباء العربية يكادون يجمعون على أن الفكرة أو المعاني كائنات لها عالمها المستقل ، وهي كغيرها من الكائنات الأخرى التي سخرها الله للانسان فأباح له أن يتصيد منها ما تساعده عليه هاتان الملكتان أو القوتان .

اذ يقول : « وأعلم أن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي وانما يتفاضل الناس في التعبير عنها » .

ويبدو من هذه القولة أن الجاحظ يقدر أن المعاني كائنات مستقلة وأن الناس جميعا يكادون يعرفونها وأن الامتياز والمفاضلة بينهم تتم

عـن طريـق صياغة اللغـة صياغة محبوكة ، متينة .. بحيث لا يفلت مـن زمامها أي جزء مـن أجزاء هذا المعنى .

ويظهـر أن نقاد العرب بعد أن أحسوا ما ذهب اليه الجاحظ ـ مما ترتد أصوله الى فلسفات بعيدة كانت مثار جدل أو خصومة بين المفكرين ـ أحسوا أن ما ذهب اليه الجاحظ لا ينتهي الى غاية واضحة يتبينون منها هذه الفروق الدقيقة بيـن الألفاظ بمـا هي معارض للمعاني ، وبيـن المعاني بوصفها فكرا مجردا يهوم في دنيـا الناس ويحوم حولهم ـ مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت مداركهم .

ومـن هنا اختلفوا حول قضيـة الاعجاز اختلافا بعيـد المدى ـ أهو اعجاز بالصرفة أم بسواها ؟ واذا كان بسواها فهل الاعجاز في اختيار الألفاظ ورصفها على نحو خاص لا تبلغ منـه الطاقة البشريـة شيئا أو في المعاني أو بهمـا جميعا ؟

ودار النقـد الأدبي العربي في هذا المجال ، وتعددت وجهـات النظـر فيـه وجاء عبد القاهـر الجرجاني فبحثه مـن جميـع وجوهه . وكان أهم ما وصل اليـه في ذلك تحديد الأصول العامة التي ينهض عليها النظـم وان كان قد فرق القول في أماكـن متعددة مـن كتبه ـ الا أن هـذا التفريق لا يمنع مـن تقييم عملـه فيـه تقييما تتحدد بـه وجوه الاصالة التـي امتاز بهـا عـن سواه مـن الدارسيـن الذيـن تعرضوا للنظم في صورة مجمـلة لا تبين فيها هذه اللمحات الذكيـة والنظـرات الرشيدة ، ولقد كان التحليل اللغوي الذي كشف به عـن طاقات العربيـة مـن أهم سمات منهجه ودقائقه فيه .

ونستطيع أن نلخص ـ في ايجاز ـ أصول هذا المنهج ، وأول ما يطالعنا في كتابه حديثه عن البيان : وهو يبين عن خصائصه ومزاياه ابانة يؤثر فيها حسن الرصف ، وتناسق الألفاظ ، وبراعة الأداء ، وحلاوة التأتي ، فيرى قارئه البيان صورة ماثلة وشاهدا قويا ، اذ يقول : لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي ، ويصوغ الحلي ويلفظ الدر وينفث السحر والشهد ويريك بدائع الزهر ويجنيك الحلو اليانع من الثمر الى آخر ما يذكر ، ولكنه بيان لا يعنى فيه بالنظرة العلمية والعرض الدقيق والابانة الكاشفة عن مكانته في حياة اللغة ، أما الشافعي فيعرف البيان بأنه اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع فيتجه الى البيان بما هو معارض للمعاني ، وان كان يخص البيان الديني بالحديث اذ أنه يقسمه الى هذه الأقسام الأربعة المعروفة ـ كما أنه يحدد البيان بما يرجع بعضه الى النص الديني ، وبعضه الى اجتهاد المتفهم لهذا النص ـ وكأنه يقصد بهذه الأنواع الأربعة للبيان أنواع الدليل ، ويبدو أن ابن حزم وهو في هذه الفترة التي عاش فيها عبد القاهر قد حدد البيان بالدليل وفسره به وان كان قد فسر ابن حزم البيان تفسيرا أعم من الدليل في ثبته الخاص بهذه المصطلحات التي تدور على ألسنة الأصوليين وهم اصحاب ذلك الدليل والناهجون لسبيله ، والكاشفون عن طرائقه ، ويظهر أن عبد القاهر حين عرف البيان بهذه الصورة من التعريف لم يكن يقصد الا اثارة المخاطب لدرسه واكتساب خصائصه ، اذ أنه بعد قليل يتحدث عن جملة الأمر الذي تتحقق به الملكة البيانية فيعد منها العلم باللغة وطرائقها ، وأساليبها في التعبير ومقاصدها في البيان ،

وان التفاضل بيــن هذه الملكات ـ عند الأدباء ـ انما يتم عـن طريـق البصر بهذه اللغة ، وادراك أسرارها ، وهنا يتحدث عبد القاهر عن الشعر ووظيفته في تنميــة هذه الملكــة وتحقيق الرؤية الدقيقة لجوهر الأشياء عنـد الأديب ذي الوعي الناقد ، والادراك البعيد ، ويقدر الرجل في دفاعه عن الشعر ، والتثقف به ، والاتصال بوجوهه من جد وهــزل وسخف وسب وكذب وان رواية هذا الشعر ان كان القصد منها هــذا الاتصال الناقد والادراك البصير فلا حرج في روايتها بله أن تكــون عونــا على التنفس والتنشيط ، واذكاء الهمة ، ولأن النحو آصل الأسس التي تنهض عليها نظرية النظم ، يدافع عنه ، ويمكــن له ، ويبيــن عن خصائصه ، ويكشف عــن آثاره في الصياغة ـ وهنا يربط الرجل بيــن النحــو وبيــن الفكرة في حسن عرضها والوفاء بها ، فالنحو عند عبـد القاهر غير ذاك النحــو عند النحاة ، هو الفيصل بــين المعانــي ، والمعيــن على استخراجها والمعيــار الذي لا يعرف صحيح مــن سقيم حتى يرجع اليه ثم ينتقل الى الحديث عـن الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك مما تعبر به عن أسباب الامتياز والتفوق .

ويبدأ الرجل في الكلام عن اللفظة المفردة التي هي اللبنة الأولى في العمل الفني الأدبي ويقرر أصلا مــن أصول نظريته ، وهو أن الالفاظ بأفرادها لا تسمــو على أخرى ، ولا تفضلها ، وأن الواضع وان تعددت ألفاظه لمسمى واحد فليس بيــن تلك الألفاظ تفاضل ، أو فرق ، وانمــا يحدث ذلك التفــوق حين ينظــر اليــها في نظم تكاملت أسبابــه ، وتضامت أجزاؤه ، واجتمعت أطرافه ، فيقول : عرفت أن ليس الغرض

بنظـم الكـلام أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل ، ويفسر عبد القـاهــر فكرة ارتقاء العقل في أثناء حديثه عـن الأدلة التـي يسوقها واحدا في اثر الآخر تحقيقا لما ذهب اليه من أن النظم هو الذي يحدد مرتبة التفاصيل بين الألفاظ ••• في مواضعها مـن عمليـة النظم بأن الغرض ترتيب المعانـي في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها ، ويخلص من ذلك الى أن النظم صنعة يستعان عليها بالفكرة وتستحرج بالرؤية •• ثم ينتقل الى أن الفكر لا يلتبس بالفكـر وانمـا يلتبس باللفظ ــ وما دامت الألفاظ معارض للمعاني فانها تكون على قدودها ــ أو بعبارة أبين تكون الألفاظ تابعـة للمعاني ودائرة في مجالها ترتيبا واتساقا فيقول : « واعلم أن ما ترى أنـه لا بد منـه مـن ترتيب الألفاظ ، وتواليها على النظم الخاص ، ليس هو الذي جلبته بالفكر ، ولكنه شيء يقع بسبب مـن الأول ضرورة من حيث ان الالفاظ اذا كانت أوعية للمعاني فانها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فاذا وجب لمعنى أن يكون أولا وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثلـه أولا في الترتيب » •

وهكذا ان صورة النظم في عامة أمرها تجيء على هذا النسق ، وتقع بهذا الترتيب ، الفكرة أولا ، ثم الألفاظ ثم ترتب الألفاظ نطقا علـى أساس مـن ترتيـب الفكرة وهو الترتيـب الذي يهدي اليه العقل ، ويدعـو اليـه التأمل وتلزم به الوحدة الفكرية التي تربط بين أجزاء المضمـون الأدبي •

واذا كان عبد القاهر قد وصل بيـن اللغة في نظمهـا وبـين

المضمـون في ترتيبه المنطقي فانه قد أشار في صنيعه ذلك الى أصل مـن أهم أصول الوحدة المنطقية ، فقسم للعقل مكانا في العمـل الفنـي ، وجعله هاديـا لوحدة النسق في ترتبه على صورة تتلاءم وقوى الانسان العاقلة والمتذوقة وهي الفكرة التي نادى بها بعض الفلاسفة حين تصدوا لتفسير النص الديني حين قرروا ان الانسان مزاج مـن ثلاثة عناصر وان النص ينبغي أن يفي بحاجات هذه العناصر ، غير أن عبد القاهر حين نظر ـ في النظم ـ بهذا المنهج الذي أدار القول فيه بيانا وايضاحا عني بأمرين وهما : العقل والنفس ، ولا نزاع في أنه يفرق بين هذين اللفظين من ناحية الدلالة ـ فالعقل عنده يقوم بالارشاد المؤدي الى سلامـة المضمـون وقوته ، أما النفس فهي تلك الوعاء الذي تنقدح فيه هذه المعاني انقداحـا يكفل لها قوة التأثير في نفس القارىء أو السامع متى برزت له في صورة منطوقة أو مكتوبة ، على هدى مـن ارشاد العقل وتوجيهه •

فعبد القاهر كغيره مـن فلاسفة النقد يصل بيـن المضمـون وبين القوى الانسانيـة التي سما بها الانسان على غيره مـن الكائنات ، وهو في ذلك يشايع مـن سبقه مـن فلاسفة اليونان الذيـن كان لهم مكـان مقسوم في تاريخ النقد ، وارساء أصوله ، غير أن عبد القاهر يركز في حديثه على المعنى ، ويراه أحفل بعناية الأدب وتقديره ، ذلك لأن اللفظ ليس الا وعاء له ، فالفصاحة عنده والبلاغة والبراعة ليست في الواقع الا أوصافا للمضمون ، واذا وصفت بها الألفاظ فلأنها معارض هذا المضمون ، وهي الأدوات التي تتم بها الذبذبة الموسيقيـة التي تهـز النفس وتملأها بالاعجاب والاثارة ، ويظل عبد القاهر يؤكد أن هذه الألفاظ التي يوصف

بها انتاج الأديب ترتد الى المعاني التي اخترعها ، وأن لا توصف الالفاظ مجردة ومفردة بشيء مـن معاني هذه الكلمات ، وان ما ورد مـن أن تسميـة بعض الألفاظ التي جمعت بالفصيح فانه لم يقصد به ذلك المعنى النقدي الذي يحدد به الواصف درجة مـن الفصاحة توافرت لعمـل فني ، وانما يريد مـن الفصاحة الصحة والثبوت في اللغة وهي فـي استعمـال الفصحاء أكثر وأجرى على مقاييس اللغة والقوانين الموضوعة فيـهـا .

دلالة النظم عند عبد القاهر

قد رأينا أن عبد القاهر يصل بين اللفظة وبين النظم ، ويؤكـد أن الأوصاف التي تضاف الى اللفظة وأن الألفاظ ليست الا أوصافا للمعنى الذي تدل عليه ، كما أنه يرى أن الألفاظ كما هي وحدات دلاليـة لا تفاضل بينها ، أما اذا نظرنا اليها على أنها كميـات صوتيـة فان التفاضل يحدث بينها . فاذا كانت اللفظة متآلفة هذه الوحدات فضلت سواهـا مـن الألفاظ ، وكانت حرية بحسـن اختيار الأديب ، ودقة ذوقه ، وصفاء احساسه ، وقد عرض عبد القاهر لدلالة النظم ودرجات هذه الدلالة، وكان عمله في ذلك ، النهج الواضح لمن جاء بعده من النقاد على اختلاف منازعهم، في دراسة النقـد ، وتأصيل قواعـده واستقراء جزئياته ، وهو في حديثه عـن الدلالة يقسم النظم الى ضربيـن :

ضرب يصل المرء منـه الى الغرض بدلالة اللفظ وحـده وهـو

دلائل ٢٩٨

المسمى بالحقيقة • وضرب لا يوصل الى المراد منــه بدلالة اللفظ وحده ولكــن بدلالة هذه الدلالة •

وعلى ذلك يرى عبد القاهر أن للألفاظ بما هي أصوات لغوية دلالة أولى ، ولهذه الدلالة عند النظم دلالة أخرى ، ويكاد يحصر الدلالات الثانيــة في ثلاث وهي : الكناية والاستعارة والتمثيل •

ويظهــر مــن صنيــع عبد القاهر ان هذه الثلاثة هي الوسائــل التي يمكــن أن تعرض بها الفكرة وأن الأديب يستطيع أن يفاضل بينها في الاختيار ــ وأساس العمل الفني هو الاختيار ــ أما الضرورة الملجئة الى نوع خاص مــن التعبير لا سبيل الى الاختيار فيه فليس مــن العمل البلاغي وانما هو ألصق بالنحو وأوثق به التباسا •

ويمضي الرجل في بيان هذه المعارض الأدبية الثلاثة بيانا يقتــرن بالأمثلة والشواهد والتحليل ، ويمكن أن نوجز منهج عبــد القاهــر في النظم بأنه يعتمد على استغلال طاقات اللغة المختلفة ، والاستفـــادة بها في الخلق الأدبي ، وأن عملية الخلق نفسها تتمثـــل في التفنــن ، والحصافة ، والأصالة في استغلال هذه الطاقة •

وانما أطلنــا في الحديث عن عبد القاهر لأنه يمثل نهاية الطريق بعد أربعــة قرون شهد فيها الفكر الاسلامي أنواعا مــن الصراع الفني سواء في الصورة أم في الفكرة والمضمون ، فتارة يعدون الحضارة في مختلــف صورها غذاء جديدا أمد المضمــون بجديد تطورت به حياته ، وتحددت

به سماته ، نلحظ ذلك عند صاحب الوساطة • وأصحاب هذا الاتجاه يصلون بين الانسان بما هو قدرة متصرفة في أفنان المعاني، وألفاف الفكر ، وبين العالم الخارجي الذي تنعكس آثاره في النفس البشرية ، فتصفو تارة وتكدر أخرى •

وتلك النفس مرآة صادقة شفافة ، تعكس هي الأخرى هذه الآثار في صور متعددة نسميها نحن الفنون ، وتارة ينكر بعض النقاد الذين وقفوا أنفسهم على دراسة المأثور من الشعر ـ ينكر أولئك ذلك الجديد ويرونه مجافيا للروح العربي الأصيل سواء في الصورة أم في المضمون ، والشواهد في ذلك كثيرة تقرأها في كتب النقد أو البلاغة ، وأقرب هذه الشواهد صلة بما نحن فيه ، ذلك الذي يروى عن بشار حين ابتدأ قصيدته بقوله :

بكرا صاحبي قبل الهجير   ان ذاك النجاح في التبكير

وقول بشار انما بنيتها اعرابيته ـ يدل على احساس الرجل بسطوة الحضارة ـ وأثرها في التركيب اللغوي ، وحاجة المتحضر الى أدوات كثيرة للربط بين العبارات والجمل حاجة تلك الحياة التي يعيشها ـ في تشابك حاجاتها ، وتواصل مطالبها ، فاللغة ، في الواقع ، تستطيع أن تلمس أحدهما الآخر فتستجيب له • وظهرت في ذلك دراسات واسعة ، غير في جوانبها آثار ما تصيبه الحياة من تقدم أو تخلف ، وتحضر أو تبد ـ ومن هنا قدر اللغويون من المحدثين ما بين اللغة في تقاليدها ورسومها وبين المجتمع من تعاطف وتجاذب أو تنافر وتباعد وكيف يقهر

أن العلماء المحدثين من العرب اتجهوا الى الواقع الاجتماعي الذي يعيشون في ظلاله ودرسوا اللغة على ضوء منه ولم يتجهوا الى العربية لغة عاشت مع الزمن وشاركت في أنواع الصراع الاجتماعي الذي شهده المجتمع الاسلامي ، وتأثرت به وظهرت آثاره فيها • ومما يدخل في عداد الواجب أن ندرس العربية كما ندرس الأدب عصورا وأن نجمع خصائص التعبير الأدبي أو العلمي في كل عصر ، ولعلنا نخلص من ذلك الى أحكام عامة تمكننا من متابعة القول في تطور هذه اللغة حتى انتهت الينا بهذه الصورة التي نحس فيها أثر ذلك الرقي الاجتماعي والثقافي الذي أصابته المجتمعات الاسلامية التى تتكلم هذه اللغة وتكتب بها •

ولقد لفت الى آثار هذا التطور شعراء العربية أنفسهم حين أحسوا أن الموازين الفنية قد طفقت تهتز في وجدانهم وأحاسيسهم نتيجة ذلك الواقع الحضاري الذي عاشوا فيه يوم التقت ثقافات ، وانصهرت معارف وأنشئت علاقات اجتماعية جديدة ـ عمل فيها ذلك المجتمع •• باجناسه المتعددة ، وثقافاته المتنوعة ، واحساسه القوي بأنه أضحى يمثل مجتمعا حضاريا له طابعه الخاص وخصائصه المستقلة ، ومشاركته الجادة ، في حياطة المعرفة الانسانية والتمكين لها ، وانمائها بمختلف الوسائل وشتى الأساليب •

ومما يثير الدهشة أن وسائل الدراسة اليوم غيرها بالأمس ، فهي اليوم ميسرة سبيلها ، ممهدة طرائقها ، ولكنا نؤثر السلامة ، ونخلد الى الراحة ونتخفف من احتمال المشقة ، فنوازن بين المسالك ونقارن بين الطرائق فنختار أيسرها على النفس وان قلت جدوى الغاية منه •

على أية حال ـ ذلك واجب يفرضه علينا الوفاء لماضينا ، وتقدير حاضرنا والاستعداد لمستقبلنا ، وهو كما نرى بادي الأهمية في تاريخ الانسانية المقبل •

ان هذه الاهتزازات التي تعرضت لها حياة المجتمع العربي كان لها آثارها الدقيقة في حياة اللغة ، ذلك لانها كانت ولا تزال وسيلة التعبير عن هذه الحياة ، وقد رأينا أن الجانب الفني منها أنشأ تتعقد حياته وتضطرب بأهله مسالكه •• وأن اللغة في نظمها وبنائها وتطور دلالات ألفاظها قد أصابها من ذلك كثير يفطن الى الكشف عنه ، والابانة له المعنيون بالدرس اللغوي الأصيل • ولنرجع الى ما كنا فيه ـ وهو حديثنا عن اللغة بين الدين والأدب ، وقد قارنا بين صنيع رجلين ، أما أحدهما فالغزالي وأما الثاني فعبد القاهر ـ وكلا الرجلين قد تصدى لدراسة اللغة ـ فأما أولهما فيعدها وسيلة الدليل ، ومعرض البرهان ، وأما ثانيهما فيعدها وسيلة الخلق الأدبي المتميز ، فالحقيقة عند الأول هي مادة الدليل ، واللغة تقوم بدور التعبير عن هذه الحقيقة تعبيرا مجردا واضحا ولا شك أن الحقيقة هي مادة اللغة الأولى يوم كانت ـ ومن هنا كانت عملية النقل بشتى صوره ، وتفاوت أبعاده ـ لا حساب لها عند الديني وبخاصة يوم تصدي لاستنباط الحكم •• الذي به يتم التدين الفارق بين الايمان والكفر • فالذي لا مراء فيه أن تدرج الحياة الاسلامية بعد قد دعا الى التوسع في فهم النص الديني واستنباط أحكام منه تمس أنواع السلوك الاجتماعي الذي دعا اليه تدرج الحياة نفسها بما تحمل في أطوائها من عوامل التغير والتطور ، وقد أشرت في كتابي

(في التشريع الاسلامي) الى مثل مـن هذا التوسع المتصل بما اصطلح على تسميته بالمقدرات ، ومما هو بسبيل ما نحـن فيه ما يقرره عز الدين ابـن عبد السلام في كتابه الامام في أدلة الأحكام اذ يقول :

« معظم آي القرآن لا تخلو عن أحكام مشتملة على آداب حسنة ، وأخلاق جميلة ، ثم مـن الآيات ما صرح فيه بالأحكام ومنها ما يؤخـذ بطريق الاستنباط مـن آية الى أخرى كاستنباط صحة أنكحة الكفار من قوله « وامرأته حمالة الحطب » وصحة صوم الجنب من قـوله فالآن باشروهن الى قوله حتى يتبين لكم الخيط الى أن يقول وتارة بما رتب عليها في العاجل أو الآجل مـن خير أو شر ، أو نفع أو ضر ، وقد فرع الشارع في ذلك أنواعا كثيرة ترغيبا لعبادة أو ترهيبا » •

وكلا الاتجاهيـن يحاول استغلال طاقة النص ، فأما الأديب فـان استغلاله لهذه الطاقة يتجه دائما الى المعاني الثانيـة أو معنى المعنى ، واصلا بينـه وبين هذه المعاني وبيـن قدرة الأديب على رؤية الأشيـاء والوصول الى جوهرها ، أما الديني فانه يصل بين النص في دلالاته، وبين ارادة الشارع في اصلاح الحياة ، التمكين لها •

فالأديب وظيفته الكشف عـن الجوانب المجهولة مـن المعانـي ، وتوليدها ، وهو في هذا الكشف يحاول أن يتعمق نفسيته ، ويبرز المكنون فيها ، أما الديني فانه يبذل الجهد في أن يصل بيـن النفس في قدراتهـا وطاقاتها وبيـن الارادة الالهية مـن جهة ثم بيـن هذه القـدرات

الاتقان جـ ٢ ص ١٣٠

والطاقات والسلوك البشري في نواحيه المتعددة ، والمتفهم للنص الأدبي يدرك هذه الحقائق المتصلة بالعمل الأدبي جملة ويقدرها ، وكذلك المتفهم للنص الديني •

وهنا تبرز ناحية جديرة بالعناية ، حرية بالتقدير والنظر ، وهي ما اصطلح على تسميته بخلود العمل الفني أو الديني •

لقد حاول النقاد من جانبهم أن يحددوا القيم التي يقوم عليها خلود العمل الفني ، وقد وصلوا بين هذه القيم وبين المتذوق للعمل الفني •

وقد انتهوا الى أن خلود العمل الفني يبدو في تأثر متذوقة به واستجابته له ، وان هذا التأثر لا يتم الا حين يمس العمل الفني مشاعر انسانية عامة وان اتخذت معارضها من البيئة التي يعيش فيها صاحب العمل ، ذلك لأنه لا يستطيع أن يتحرر من مؤثرات بيئته أو يتجاهلها ، ولا شك أن من أهم هذه الرسوم البيئية اللغة وهي وان اشتركت مع سواها من اللغات التي تشاركها في النشأة الا أنها اكتسبت بحياتها في بيئة خاصة مدلولات جديدة ، وألوانا من الصيغ والتعبيرات ، أنشأتها طبيعة التطور الاجتماعي لهذه البيئة •

فخلود العمل الفني ادق ركيزته الأولى ـ المشاعر الانسانية العامة ولكنه خلود يفطن الى أدق ما يعتمل في النفس من الأحاسيس البعيدة ، والانطباعات الدقيقة التي يعيش فيها الفرد مع اتصال حياته بسواه •

ولا جدال في أن النص الديني يحظى بهذا النصيب من الخلود ، لا

لأنه يمس المشاعر ، ويكشف عن الأحساس المتصلة بالسلوك فحسب ، بل لانه أيضا يخطط للحياة ، ويمهد للمستقبل ، ويقدر الانحراف في السلوك الناتج عـن صراع الغرائز ، ومغالبة العواطف • وما دام هـذا النص يقدر هذا كله ، ويعمل لحمـاية الحياة الانسانيـة ، فانه يعيش مـع الحيـاة ويبقى بقاءها •

وهنالك قوة أخرى مكنت لهذا الخلود ، وارست أسبابه ، وهـي ارتباطه بالديـن وحمايته للنفس ، مما يعتورهـا مـن أسباب التهافت والاضطراب •

فكرة التفسير بين النص الديني والادبي

وقد اختلفت مناهج التفسير باختلاف النصين اختلافا بعيدا ، فمفسر النص الأدبي يحاول جهده أن يبرز ما فيه مـن اشارات دقيقة ولمحـات موحيـة ، مما يمس جوهـر العمـل الفني في تصويره لهذه المشاعـر الانسانيـة العامة • أما مفسر النص الديني فانه يحاول أن يضيف اليه معاني يأذن باضافتها اليـه نظمه وتركيبه •

ووسيلته لهذه الاضافة • وهنا تواجهنا هذه المشكلة :

وهي التأويل في الأدب أو الفن والتأويل في الفن الديني •

لقد استطاع العالم الانجليزي Rose في مقدمة كتابه Handbook of greek Mythology أن يعرض لجمـلة مـن المناهج التي اتبعت في تفسير النص وركز اهتمامه على المحاولات التي بذلت حول الالياذة ، وانتهى في

دراسته لها الى أنه قد عرفت نظريات تختلف في تفسير هذا النص والابانة عما يمكن أن يؤديه من تصوير لهذه المشاعر وتلك الأحاسيس موصولة الأسباب بالكون ونواميسه والطاقات الانسانية التي تنصاع لهذه النواميس أو تصدها ، وقد أشرت في بحث مضى الى أن هذه المناهج قد عرفت في تفسير النص الديني أو الأدبي الذي حظي بتقدير يسمو الى التقدير الذي يحظى به الكتاب الديني ، وانتهيت الى ان التأويل بالنص الديني أمس ، وبتقدير وظيفته ألصق ، لأن مفسر هذا النص يحاول دائما أن يضيف اليه جديدا أو بعبارة أدق يكشف من معانيه ما كان مجهولا وهو في هذا الكشف يتطلع الى دلالات أخرى غير تلك الدلالات التي تعرف بالدلالات الثانية في النص الأدبي •

هذه الدلالات التي يرى عبد القاهر ومن شايعه من النقاد تتخذ معارض في الاستعارة والتشبيه والكناية ، ونحن نعلم أن الاستعارة أدق هذه المعارض وأصعبها مراسا ، وأبعدها انقيادا ، وانها قائمة على النقل ، فان كان النقل عن طريق التشبيه الحاصله بين طرفين فالاستعارة وان كانت عن طريق المشابهة فالتجوز •

واذن فعملية النقل تحتاج الى قدرة على رؤية حقائق الأشياء التي تدل عليها الألفاظ حتى يمكن النقل ويؤمن الخطأ فيه ، وحتى يستطيع الناقل أن يدرك الفروق الدقيقة بين هذه الحقائق ، وأن يختار من الألفاظ ما يكون معبرا عنها ، ومن هنا أخطأ كثير من الأدباء في عملية

النقل لأنهم لم يؤتوا حظا من الدقة في الرؤية والاصالة في اختيار الألفاظ، وقد ذكر الجرجاني في وساطته كثيرا من الشواهد التي يبدو فيها هذا النقص ، ويظهر في ثناياها ذاك العجز ، كما أنه ألمع الى أسبابهما ، وهنا يؤكد الجرجاني أن للثقافة بمعناها الواسع دورا كبيرا في دقة النقل وعدم دقته ثم اورد بعض هذه الشواهد لتدل على ما سواها من الجهات التي يعتري فيها العجز عمل الأديب ، فيأتي على غير ما كان يرجو من سداد القصد ، وصحة التركيب ، وبراعة الخلق الأدبي .

كما أن الجرجاني يقدر دائما عامل الزمن في التصرف في المعاني ، ونقلها والتوليد منها والتأليف بين المتنافر من أجزائها ، والشارد من دقائقها .

ثم جاء عبد القاهر ، كما رأينا ، فأفاض في بيان الاستعارة والتشبيه والتمثيل وحدد الخطوات التي تتبع في عملية النقل ، ثم عاد الى تكملة القول في كل ذلك مؤكدا أن الاستعارة أحيانا لا تنحل الى أجزائها التي تألفت منها ، ذلك لأن التحليل يفقدها جمالها ، ويحول بينها وبين وظيفتها في التأثير في النفس ، واثارة الاعجاب بها ، ومثل لذلك يقول زهير بن أبي سلى في قوله ، « وعري أفراس الصبا ورواجله » .

وتقدير عبد القاهر صعوبة حل الاستعارة دليل على أن من الاستعارات أو الصور الفنية القولية ما لا يمكن ان يتألف من أجزاء بهذه الصورة التي تحتاج الى اختيار الأشياء والتأليف بينها ، وان

هنالك أنواعا من النسب بين الألفاظ يعين على تحقيقها ما توافر في الاديب شاعرا أو ناثرا من صدق الرؤية ، وصحة الادراك ، ونفاذ التأمل ، والا فما الفرق بين هذه الاستعارة التي وردت في شعر زهير وبين قول لبيد اذا أصبحت بين الشمال زمامها ؟

والثانية يمكن ان تحل الى الأجزاء التي تركبت منها ولكنها الصعوبة التي يجدها مفسر النص في تحديد هذه النسب تحديدا يصل بالمفسر الى ذلك التطور الدلالي في عملية النظم نفسها .

والحاكم بالنقل أو المتصدي لبيان مراحله انما هو مفسر النص ، فأما عملية النقل فانه يحدها الأصل الذي انتهى اليه فلاسفة النقد وهو الحقيقة والمجاز ، وقد عرف القدماء الحقيقة بأنها استعمال اللفظ فيما وضع له ، والمجاز بأنه استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينه مانعة من ارادة المعنى الأ كما أنهم قسموا المجاز الى مجاز مرسل والى مجاز عقلي وفرقوا بينهما بأن المجاز المرسل ما كان في اللفظة أما المجاز العقلي فانما يكون في الاسناد أو بمعنى أدق المجاز منه ما كان في الألفاظ ومنه ما كان في النسبة بين الألفاظ .

والواقع أن تعريف المجاز بهذه الصورة وبخاصة المجاز الواقع في الالفاظ مجردة عن النظر في النسب بين الألفاظ يعتمد أساسا على الوضع اللغوي ، وهو أمر يصعب تحديده ان لم يبد مستحيلا .. على أن فكرة الوضع فكرة لا يكاد يسلم بها لغوي نافذ

دلالة الالفاظ ص ١٢٨

الادراك في اللغة ونشأتها وتطوير حياتها موصولة بحياة الأفراد والمجتمعات التي يتكلم بها أو يستعملها •

ثم ان المجاز يعتمد في تقريره على أصول : أهمها معرفة التطور الدلالي الذي مرت به حياة اللفظة كما أن مراحل هذا التطور لا يمكن تحديدها الا بتحديد النسبة بين اللفظ المتجوز فيها وبين السياق أو النظم الذي وردت فيه ، أما القول بالتجوز في اللفظة مجردة فذلك ما لا يقول به أحد،ولنمض في تحليل بعض الشواهد التي يستشهد بها الباحثون في المجاز مبتدئين بما سموه بالمجاز المرسل فمثلا قوله : « أراني أعصر خمرا » • وقوله تعالى « وآتوا اليتامى أموالهم » لا يمكن ادعاء التجوز في الخمر الا لأنها وردت في سياق الفعل أعصر ذلك لأن الخمر لا تعصر اذ هي سائل وانما يعصر العنب الذي تنجت منه • ومثل ذلك يقال في قوله « وآتوا اليتامى أموالهم ؤ اذ لم يفهم التجوز لأن السياق فيه الأمر بايتاء المال لهؤلاء اليتامى الذين يبلغون الرشد وهم اذ يبلغونه يرتفع عنهم الوصف باليتم ، وهكذا يمكن أن نقول ان المجاز لا يوصل الى تقريره الا عن طريق ملاحظة النظم ، والتأمل في السياق ، وادراك النسب بين ألفاظ هذا النظم •

فأما ما ذهب اليه الزمخشري في أساس البلاغة ويكاد ينكره عليه الأستاذ ابراهيم أنيس فانه يعتمد في القول به على فكرة النشأة المادية للغة وتطورها حتى تصبح ذات دلالة على معان حضارية أو أشبه بالمجردة ••ذلك لأن الزمخشري كما يبدو في صنيعه ممن يقولون بمادية اللغة بمعنى أنها تتخذ من ماديات الحياة مادتها الأولى ، ومن هنا

يرى ان استعمال الفعل كتب بذلك المعنى الحضاري مجاز اذ أن معناه المادي الأول هو ضم طرفي السقاء وكذلك الفعل قرأ ، ومنها كلمة فتنة وأنها في أصل معناها المادي من فتنت الذهب والفضة على النار ، عرضتها عليها لتتبين جودتها أو رداءتها ، وهكذا نرى أن الزمخشري يقدر في بيانه لهذا التطور الدلالي مادته اللغة الأولى وهو في ذلك يكاد يتفق وما ذهب اليه كثير من اللغويين المحدثين من أن اللغة وظيفة اجتماعية يمارسها الفرد كما يمارس غيرها من الوظائف الأخرى التي تتكامل بها شخصيته •

وهكذا نرى أن مفسر النص تواجهه صعاب كثيرة أخصها ذلك االتطور الدلالي الذي يختلف الناس في تقديره والكشف عن آثاره في النظم الأدبي ، وقد رأينا أن من أهم ما يثيره ذلك التطور اختلاف الرأي حول القول بالتجوز أو نفيه في كثير من الألفاظ والعبارات •

فقد رأينا اذن من جملة هذه الآراء التي تمثل القطاعات العلمية والأدبية المختلفة في حياة الجماعة الاسلامية أن اللغة كانت وسيلتها جميعا فيالتعبير عن المعاني ، وتحرير المقاصد ، واكتشاف الذات الانسانية ، والكشف عن المجهول من جوانبها ، كما رأينا أيضا أن اللغة التي استعملتها هذه القطاعات كانت تصطبغ بحياتها اصطباغا بادي الأثر بحيث نستطيع أن ندرك من نص ما يلقى الينا غير معزو الى صاحبه أنه صورة دقيقة كاشفة عن حياة قطاع ما من هذه القطاعات • وقد تبين لنا بذلك أن اللغة لم تظل كما ولدت لم يلحقها تغير أو تطور ، وانما كانت كذلك متغيرة متطورة ، وان النقل ، في

جمـلة صوره وأشكاله ، كان وسيلتها في هذا التغير لا فرق في ذلك بين المشرع المعني بالحقائق الحفي بها العاكف على ادراكها وتحديدها ، وبين الأديب الذي يصطنع الخلق الأدبي اصطناعا يتم له به التصرف في اللغة في أوسع نطاق ، وأرحب مجال .

الباب الثاني

البلاغة العربية

نشأتها وتدرج حياتهـــا :

ترتبط حيـاة البلاغة بفـن القول وضروبه المختلفة مـن شعر ونثر ، وهمـا القسمان اللذان تندرج تحتهما كثير من الفنون التي تتخذ اداتها الكلمـة ، بمـا تحمل مـن جرس وما تؤدي مـن معنى وما تتعرض له في اثناء العصور المتتابعـة من تطور دلالي يرتبط بحيـاة المجتمعات التي تتحدث هذه الكلمة ، وتعتبرها وسيـلة الابانة عـن الفكرة ومعارض البراعـة في البيـان القولي •

كان ذلك هو الشأن عنـد اليونان وقد وصلتنا محاولاتهم في هذا الصـدد ممثلة في كتاب الشعـر والخطابة لارسطو ، كمـا كان ذلـك هو الشأن ايضا عنـد الرومان وقد انتهت الينا محاولاتهم الباكرة فـي فـن الشعـر لهوراس Arspoetica ويظهـر انه كان لكل قوم بلاغتهم يعتمـدون عليها في تحرير القول ، وتحبير البيان ، ودقة الاداء وبراعـة العرض ، وقوة الحجة ، وسلامة المنطق فقد عرف ـ في تاريخ الهنود انه كانت لهم بلاغة وان بلاغتهم ارتبطت بحيـاة كتابهم الدينـي Veda وقد عرف العرب هذا الكتاب ، وسجلوا فيمـا وصل الينا مـن اثارهم ما شهدوه مـن عناية اولئك الهنود بكتابهم الديني ، ومـا اقتضته هـذه العنايـة ، مـن استقرار القواعـد العامة التي تشكل حياة البلاغة عندهم ، فقد ذكـر البيروني في تاريـخ الهنـد وصفا لهذه المحاولات ، مؤكدا

انها محاولات تتصل اساسا بقضية الاعجاز عندهم التي كانوا يعدونها جزءا من العقيدة الدينية التي يحرصون عليها ، ويلقنونها ابناءهم ، كما اشار الى هذه المحاولات صاحب كتاب الهند والحضارة الهندية بالانجليزية بل انه ذكر ايضا فيما ذكر ان الهنود عنوا بنظرية النظم ــ وهي النظرية التي يعدها مؤرخو النقد والبلاغة الركيزة الاولى التي يقوم عليها العمل البلاغي والنقدي معا فقد قالوا ان بانيني وضع معجما للكلمات الشعرية الحية والبائدة ، كما ذكروا ان العناية بنظرية النظم وصلت الى مستوى من الدقة والاستقصاء عندهم لا يقل عما وصل اليه نقاد الادب في البيئات الاخرى ،

ويظهر ان العرب كانوا يدركون تماما ان فن القول يحتاج الى تجربة دقيقة ومراس طويل ، اخص خصائصها الرواية للاثار الادبية وفي ذلك تمرين للاذن على التفرقة الواعية بين جرس انواع الكلمات لاختيار احلاها جرسا ، وارقها صوتا واعذبها نغما ، كما ان فيها احاطة بالمعاني الادبية التي توارد عليها القراء وبالمنابغ الفنية التي كانوا يصدرون عنها بعامة، ثم بالصور الادبية التى كانوا يتخذونها معارض لما يودون التعبير عنه من مدح وهجاء وحماسة وغزل الى غير ذلك ، وقد عرفت مدارس في العصر الجاهلي واشتهر امرها بين العرب ، منها مدرسة زهير بن ابي سلمى وبنيه ، كما روت كتب النقد بعض الملاحظات التي كان يبديها الشعراء على ما يسمعون من الشعر في محافلهم ومنافراتهم وفيما كانوا يتناشدونه في الاسواق من انواع القصائد .

ولكن هذه الملاحظات مهما يكن امرها لا تنهض انتكون علما ولا هي ـ في واقع الامر مقدمات لنشأة البلاغة العربية وانما هي ملاحظات تعتمد على احساس العربي بلغته وبطاقاتها في التعبير والبيان •

ومنذ نزل القرآن أنشأ العرب يحسون ان بيانهم قد تغير وان احساسهم بلغتهم ينبغي ان ينهض على اسس اخرى غير تلك الاسس التي كانوا يقدرونها ، ويحرصون على سلامتها •

فقد احسوا ان هذا الكتاب اعطى اللغة طاقات اخرى فمكنها من التعبير عن الفكر الدقيق وقد كانت تعبر عن المعاني التي انفعل بها وجدان العربي ، ومع اختلاف الوحي الملكى والمدنى في القرآن اختلافا بعيد المدى ، فان الوحدة الادبية تشيع فيه ، وتأخذ بسوره واياته ، برغم ان الوحي الملكي يخاطب الوجدان ويستثير الغرائز الصالحة ويرسم بآياته أبعاد العقيدة الجديدة ، ويلفت الى انها لا تختلف عما دعت اليه الكتب السابقة عليه ، ويؤكد وحدة التجربة الدينية مهما اختلف بها الزمن ، وتباعدت بها الديار على حين ان الوحي المدني ، يخاطب العقل ويضع التشريعات التي ينبغي ان تقوم عليها حياة المجتمع الانسانى سواء منها ما يتصل بتكوين الاسرة ام تكوين المجتمع نفسه ، أم بعلاقة المجتمعات بعضها ببعض ، تحقيقا للخير المشترك ، والنفع العام ، ودعما للحياة الانسانية •

ويظهر ان فكرة الوحدة الادبية كانت الاساس الاول الذي لفت العرب الى ما في هذه الكتاب من فنون القول وضروب البيان ، والفاف المعاني ، واشتات الفكر ، وتسمع الى ما يروي عن ذلك العربي

مـن سمـع القرآن فقال قولته المشهورة ، والله ان له لحلاوة وانـه عليـه لطلاوة وان اعـلاه لمثمـر ، وان اسفله لمغدق وما هو بقول بشره وتسمع قريبا من ذلك فيما روى عـن سبب اسلام عمر ، وهـو فـي زيارة لاخته فسمعها تقرأ اول سورة طه فلم يكـن منـه الا ان اذهب الى الرسول ، وقد كان اشد الناس خصومة للاسلام ، واقساهم على الرسول، فآمن به وصدق بدعـوته •

وهذه الاخبار بجملتها تدل على ان العربي انشأ يحس ان لغتـه قد اصابها تغير مـن شأنه ان يلفته الى درس هذا الكتاب والعناية به ، والحرص على الاطلاع على ما فيه •

غيـر ان عناية العرب بالفتوح الاسلاميـة ، قد شغلتهم نوعا مـا عـن التفكيـر في هذا الامر ، متجهيـن الى التديـن بما جاء به مـن الاحكام ، والتشرع بمـا فيه مـن القواعد العامة ،

وقد كان الذيـن يتولون بيانه الى الناس هم القراء ، والقارىء يومئذ لـم يكن مجرد تال لالفاظ القرآن ، وانمـا كان يجمع الـى ذلك العلم بما جاء به هذا الكتاب مـن تشريعات تتناول جوانب الحياة كلهـا ، ومـن هنـا سموا بعد ذلك بالفقهـاء ـ فالفقهاء اذن كانوا هم القراء الاوليـن وهم الذيـن كانوا يبذلون الجهد ، في بيان ما في القرآن مـن احكـام ،

فلما تطورت حياة المجتمع الاسلامي وكانت الخلافة الصخرة التـي تكسرت عليـها وحدته ، فانقسمـوا الى هذه الفرق ـ اختلفت مناهـج

النظر في النص القرآني فاتخذ كل لنفسه منهجا ،

بالاضافة الى ان الفتوح الاسلامية وصلت العرب بحضارات الامم المفتوحة ، وفتحت اعينهم على مواريت في الفكر والعلم لم يكونوا يعرفون منها شيئا ، ودخل في الاسلام من هذه الامم الكثير ، وكل قد ورث ـ فيما ورث ـ اثارا من هذه الثقافات •

كل اولئك كانت له اثاره ـ في توزع العرب في دراساتهم ذلك لان ابعاد الثقافة العربية حينئذ قد اتسعت فلم يكن في الامكان الاحاطة بها او ادعاء العلم بها جميعها

فلما انتهت هذه الفترة بما حملت من انواع الصراع على الخلافة تحقيقا لوحدة الجماعة الاسلامية وحماية لها وتمكينا لحياتها وانفرد الأمويون بالامر وانتقلت الخلافة من المدينة الى دمشق كان ذلك بداية تطور جديد لم ينل الدرس البلاغي منه شيء بل اتجه بعض الأمراء منهم الى ترجمة الكتب العلمية فيما تذكر الروايات التاريخية •

وفي هذه الفترة نشطت الدراسات اللغوية والتشريعية نشاطا ملحوظا فكان ان بدأ التفكير في استقراء قواعد اللغة حتى ييسر امر تعلمها على الأمم المفتوحة ، كما انشأ الموالي يشاركون في هذه الدراسات على نحو ما وقد أدى ذلك الى ان تكون لهم آراؤهم ـ في وظيفة اللغة واتخاذها وسيلة للتعبير وتطورها الدلالي ، ثم ما أصابها من تأثر بسواها من اللغات التي تصاقبها

(١) ولقد كانت اولى لبنة وضعت في سبيل ظهور الدرس البلاغي : نشأة

النحــو : ذلك لانه يمثل مجمــوع القواعــد التي تحدد السلوك اللغوي في بنــاء الأسلوب وهندسة العبارة ، وبها يستطيع الدارس ان يمــارس نشاطه النقدي القائم على التفكيــر والتفسيــر والملاحظة النافذة الــى أعمــاق النص والكشف عــن طاقاته المتعددة

غير أنه ينبغي أن نلفت الى أن الدراسات اللغوية التي ظـــهرت في هذا العصر كان مــن بيــن أسباب وجودها ــ العناية بالنص القرآني اداء وفهمــا بحيــث تمــرن الألسنة على قراءته والعقول على تدبر معانيه ، والأذواق على الاحساس الدقيق بما حلى به أسلوبه مــن ألوان الجمــال القــولــي •

وما كاد القرن الأول مــن الهجرة يوشك أن ينتهي حتى عصفــت بالدولة الاسلامية عواصف الفتنة والاختلاف التي أطاحت بالحكم الأموي فجاء على أثرهم العباسيــون •

وبظهور هذه الدولة واتخاذ العراق مقرا لها يبدأ الفكر الاسلامــي في مجالاته المتعددة يستأنف مرحلة جديدة مــن حياته وهي المرحلة التي تتحدد فيها مسالك الدراسات المختلفــة ويظهــر فيها التخصص الواسع، ويغلــب على ذلك كله طابع الصناعة الجاهدة في الوصول الى الأكمــل في كل ما يحاولون •

(٢) والواقع ان هذا العصر كان بداية التغير الاجتماعي الذي أصاب حيــاة المجتمــع العربي ففيــه نشطت دراسات جديدة لم يكن العرب على علم بأصولها واخصها الفلسفــة كمــا ان في هذا العصر أنشــأت

العناصر الداخلة في الاسلام من الفرس وسواهم تشعر بكثير من الطمأنينة المؤدية الى تعدد وجوه نشاطهم في العلم والفن فلم يعد للتحرج الديني مكان في حياة العامة ، كذلك لم يعد للتعصب للعرب والعربية اثر غالب على سلوك الجماعة ، وانما القوم سواء .

وفي غمرة هذا الصراع بين الآراء والمذاهب والأجناس والشعوب تظهر أوائل الحس النقدي وبواكره ..

ولقد ظهر أثر ذلك كله ـ في ان الشعراء الذين ظهروا في هذه الفترة طفقوا يراجعون المواريث الفنية التي كان يصدر عنها انتاجهم الأدبي فيثورون عليها ويسخرون منها مدركين ان التغير الاجتماعي الذي ظفرت به الحياة لا بد ان يكون له مكانه وتقديره في الاعمال الفنية ما دام هذا الفن مرآة تنعكس عليها حياة المجتمع ومادام المجتمع هو الذي يتذوق الأدب ويحكم عليهوفي هذه الفترة ايضا أحس الشعراء أن وظيفتهم في الحياة قد تغيرت فلم تعد محدودة باطار الخلافة وانما لهم حقهم في ان يصوروا حياة المجتمع الذي يعيشون فيه بما تحمل هذه الحياة من ضروب التناقض الاجتماعي في السلوك والعادات والتقاليد ، والمذاهب والاراء والاعتقاد والتدين ، وهنا نلحظ اتجاهات متدابرة في الفن نفسه فتظهر في أوائل هذا العصر فكرة الالتزام او التحررسواء أكان التزاما يتقيد بالمواريث الفنية وهي التي اصطلح عليها بعمود الشعر أم تحررا وخروجا عليها ، وانطلاقا تتأكد به ذاتية الشاعر وانفراديته في نطاق ذلك التغيير الاجتماعى الجديد ، وهنا تظهر فكرة القديم والجديد .

وحد القدم والخبرة يتمثل في بداية هذا العصر واحساس المجتمع نفسه بأن حياة جديدة قد بدأت ، لا يربط بينها وبين الحياة السابقة سوى هذه اللغة في حدودها العامة ورسومها الثابتة تلك الحدود والرسوم التي يحددها النحو والصرف • أما وراء ذلك من الفكرة او طريقة التعبير فللعصر بجدته ونشاطه ، وقدرته على الصناعة والخلق والابتكار أثره في هذا كله •

ونلاحظ ان مبدأ القدم والجدة عاش في بيئتين مختلفتين وان كان كل منهما وثيق الصلة بالآخر فاما البيئة الاولى فهي البيئة اللغوية التي اخلصت نفسها لدراسة اللغة واستقراء الفاظها ، ووجوه التعبيرات المختلفة التي يمكن الاطمئنان الى صحتها ولا سبيل الى حصر ذلك كله وتوثيقه سوى الشواهد اللغوية المأثورة التى يصل اسنادها الى عربي لم تخالطه عجمة ، ولم يفسد لسانه تحضر غير موصول الاسباب بالعربية الصحيحة •

ومن هنا وقف اولئك اللغويون عند حدود القرن الثاني للهجرة فبشار وأبو نواس ومسلم بن الوليد والبحتري وأبو تمام واضرابهم ممن ادركوا هذا القرن او عاشوا حياتهم كلها فيه ليس لهم حظ من التوثيق عند هؤلاء اللغويين وانما هم عرضة للتخطئة والتصويب في اشعارهم وفي كتب النحو التي بين أيدينا اشارات الى موقف النحاة واللغويين من اولئك الشعراء •

أما البينة الثانية فهي بيئة النقاد الذين اخلصوا أنفسهم لدراسة

الظواهر الفنية كما يمثلها الشعر الذي لم يكن للعرب يومئذ فن سواه يعتمد على الكلمة وان كانت لديهم فنون اخرى كالرقص والغناء وما اليها .

وتكاد تتحدد كما قلت فكرة القدم والجدة عند اولئك بعمود الشعر الذي أشرت اليه يروي ابن قتيبه) يقول (وسمعت بعض اهل الادب يذكر أن مقصد القصيد انما ابتدأ بذكر الديار والدمن والاثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها اذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء الى ماء وانتجاعهم الكلاء وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويطرف اليه الوجوه الى أن يقول ثم ينتقل الى وصف السهر والرحلة والنصب ثم الى الغرض المطلوب .

ويبدو أن المتعصبين لعمود الشعر كانوا اكثر من الثائرين عليه والمهونين من امره . والداعين الى التجديد بما يلائم ذلك التطور الجديد حتى ان خلفا الأحمر يروى عن شيخ من شيوخ الكوفة انه كلما حاول أن يجدد في شعره انصرف عنه الناس ولم يصغوا اليه فاذا قال شاعر .

انبت قيصوما وجنجاثا ــ (احتمل له)

واذا قال ذلك الشيخ أنبت اجاصا وتفاحا لم يحتمل له . .

وهكذا نرى أن هذا القرن كان بداية الحركة النقديـــة في الأدب العربي مهما أسرف بعض الباحثين في السبق به الى العصر الجاهلي فان النقد ينبغـي ان يعتمـد على التقييم المعلل اما الملاحظات العابـــرة مـن الاستحسان والاستكراه فليس لها في حساب النقد مكان والا كان الناس جميعا نقاد الا فرق بين دارس استكمل أسباب الحكـم ووسائلـه ، وآخـر لم يتح له حظ مـن ذلك كله •

ثـم تطور النظر في القدم والجدة فوجدنا ابـن قتيبـه نفسه يرفض في شدة القول بها ويرى أن المسألة نسبيـة فمـا هو جديد اليوم سيصبح قديمـا غدا اذ يقول : ولم يقصر الله العلم والشعر على زمـن دون زمـن ولم يخص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسومـا بيـن عباده في كل دهـر وجعل كل قديم حديثا في عصره وكل شرف خارجيـة في أوله فقـد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين وكان ابو عمـرو بـن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت بروايته ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعـد العهد منهم ، وكذلك يكون مـن بعدهم عـن بعدنا •

كمـا أن هذا الرجل يعرض للطبع والصنعة : ويتخذ ذلك مقدمة لرأيه في التخطئة والتصويب عنـد حديثه عـن الشعر وأنواعه المختلفة ، واحساس ابـن قتيبة وأضرابه بأن الفـن الشعري منه ما هو مطبوع ومنه ما هـو مصنوع دون ان يبيـن لنا حد الطبع وحد الصنعة ومتى نحكم على بعض الشعـر بأنه مطبوع وعلى بعضه الآخر بأنه مصنوع يوقعنـا في حيرة مـن أمر هذا الحكم • ولكنه في موضع آخر يكشف عن بعض

الوسائل التي تعيننا على صحة الحكم وأصالته : وهي البحث عن البواعث وراء الأثر الفنني وعن مدى الرغبة فيه ولأخلاص له ، ولقد صور سويد بن كراع في أبياته المشهورة كيف يكون الشاعر مطبوعا وكيف يكون صانعا اذ يقول :

أبيت بأبواب القوافي كأنما
أصادي بها سربا من الوحش نزعا
أكالئها حتى أعرس بعدما
يكون سحيرا أو بعيد فأهجعا
اذا خفت ان تروي على رددتها
وراء التراقي خشية أن تطلعا
وجشمني خوف ابن عفان ردها
فثقفتها حولا جريدا ومربعا

(٣) وفي هذا العصر اتسع الديوان وتعقدت الحياة فيه وتخصص قوم في الكتابة له وتحددت رسوم هذه الكتابة حتى أصبح أولئك الكتاب يؤلفون طائفة من طوائف المجتمع الاسلامي لها كيانها في توجيه حياة الدولة وتدبير أمرها وهم يمتازون بثقافة واسعة اخص ما تم به ادراكها لطريقة الحكم ووسائله ، ولهؤلاء طريقتهم في الكتابة من حيث تنميق العبارة ، ودقتها لارتباطها بحياة الدولة ، وقصور الخلفاء ، وفي رسالة عبد الحميد الكاتب التي يرويها كرد على رسائل البلغاء بيان شاف لطبيعة هذه الكتابة ووسائلها كما أنه في هذا العصر

ايضا اتسع القول في العقيـدة وتعددت مسالكه وللعقيـدة آثارها في فهم النص القرآني وتوجيه اشاراته والكشف عن مقاصده •

ويمكـن أن نجمل هذه الاتجاهات المتعددة في اللغـة ، والادب ، والأعتقاد والتشريع ، والكتابة وكل هذه الحركات او الاتجاهات انمـا تقـوم على فهم النص فهمـا يعتمد على البصر باللغة واساليبها ومقاصد المتكلميـن بها والمستعمليـن لها وما يترتب على ذلك كله مـن احساس عميـق بالحس اللغوي الذي يصدر عنه الانتاج الادبي أو الفني بعامة •

والادب في عامة أمره ليس الا صورة للمجتمع ، والمجتمع الاسلامي كمـا رأينـا ينتظم انمـاطا متعددة مـن المذاهب والآراء والسلـوك وطرائق العيش ، ووسائل كسبه يقول (ولك) في كتابه نظرية الادب ما ترجمـته « أن الأدب نظام اجتماعي يتخذ اللغة أداة له ومثل هـذه الابداعات الادبيـة التقليدية كالرمز والوزن في الشعر مـن اثار ذلك المجتمـع وهي مقررات او أصول نبتت فيه واستكملت حياتها به واكثر مـن ذلك فان الأدب يمثل الحياة والحياة في أبعادها الواسعة حقيقـة اجتماعيـة سواء أكانت حيـاة طبيعيـة أم ذاتيـة أم فرديـة وهـي موضوعات لهذه المحاكمة الأدبيـة فالشاعـر مثلا عضو في مجتمع وهـو محكـوم بقيـم اجتماعيـة نوعيـة بمعنى أنه يستقبل أو يتأثر ببعض درجات المعرفـة الاجتمـاعيـة ويردها له ، والأدب في الحقيقة ينشـأ موصول الأسباب بالمقررات الاجتماعيـة الخاصة وحتى في المجتمعات البدائيـة لا نستطيـع ان نميـز بيـن الشعر والديـن والسحر •

ثم ان الأدب أيضا وظيفة اجتماعية فلا يمكـن ان يكون فرديـا خالصا .

(٤) **فكرة اللفظ والمعنى وظهورها في هذا العصر :**

ان العلاقة بيـن اللفظ والمعنى ، أو كمـا يسميها اللغويون المحدثون بيـن اللفظ والدلالة ، مـن البحوث التي حظيت بعناية اولئك الباحثين في هذه الفتـرة أو في هذا القـرن وذلك لان اللفظ رمز لهذه الدلالـة وقد يكون الرمز دالا على جمـلة المعنى أو على جزء منه أو على لازمـة مـن لوازمـه يمكـن ان يستدل به على المعنى نفسه ، وقد تكـون الألفاظ بتركيبها دالة على هذه اللوازم وقد تؤدي هذه الألفاظ وظيفـة أخـرى بصورها المتعددة وهي هذه الاشتقاقات الكثيرة التي يمكـن ان تصاغ مـن مادة لغوية واحدة .

كل هذه الاعتبارات او النظرات أحدثت آثارها في نشأة النقـد العربـي نشأة علميـة تقوم على الدراسة الواعية والاستقراء البعيـد والاحساس البصيـر والتعليل الواضح المستنيـر .

ومـن هنا ظهرت كتب تحمل أسم المعاني كمعاني القرآن للفـراء ومجاز القرآن لابي عبيدة . ويذكرون في سبب حمل أبي عبيـدة علـى تأليف كتابه المجاز ان احد الكتاب سأله يوما عن معنى قوله تعالى « طلعها كأنه رؤوس الشياطيـن » في وصف النار فنهض لتأليف كتابه مجـاز القرآن ، ويرى ابـن تيميـه انه لـم يقصد ؟ بالمجاز ما هو قسيـم الحقيقة ولكنه يريـد منـه طرائق التعبير عـن الفكرة .

فاذا عرفنا ان أبا عبيدة انتهت حياته في أوائل القرن الثالث وأنه كان معاصرا للفراء وبجانبهما الامام الشافعي الذي ترك رسالته المشهورة في أصول الفقه ، وقد تحدث فيها عن اللغة ووظيفتها في اداء المعاني واثرها في فهم النص أدركنا الى أي حد كان هذا العصر عصر التفكير المنظم ـ في نشأة النقد العربي نشأة تعتمد على الدراسة والخبرة ، ثم على التعليل الذي هو السمة البارزة للنقد ذلك لان التعليل لا تنهض حياته الا بوسائل متعددة تحققها ثقافة واسعة، وتجربة دقيقة وادراك واع بطبيعة سير الحياة الاجتماعية موصولة الأسباب بالنواميس العامةالمسيرة للحياة بشعابها المتعددة ، ومسالكها الدقيقة .

وما كاد القرن الثالث يأخذ في المضي حتى ظهر الجاحظ في حياة النقد العربي يمثل هذه التيارات الكثيرة التي أشرنا اليها جملة ،ويكاد يلخص في كتابه البيان والتبين الدوافع العامة التي تقود هذه التيارات وتوجهها وبحسبي ان اشير هنا الى بعض نصوص من كتابه هذا لها دلالتها على هذه الدوافع التي طورت من حياة النقد العربي فاسلمته الى أن يستأنف من حياته فترة أخرى لها خصائصها الواضحة وقسماتها البارزة على ما سنبينه فيما بعد .

انتهت حياة الجاحظ سنة ٢٥٥ من الهجرة وقد دان في حياته بمذهب الاعتزال ودافع عنه وكان طبيعيا ان يتأثر باتجاهات هذا المذهب في الاعتقاد ، والثقافة وان يقيم تفكيره على هدى من أصوله ومن هنا تعددت ثقافة الرجل واتسعت ابعادها فكتب في الحيوان ، وفي

البيـان وأصوله وضروبه المتعددة ، كمـا كتب في الرسائل وأنواعـها والأديان ومسائلها ، ومسالكها التعصب لها واسباب ذلك التعصب ، وفي خصائص بعض الأجناس البشريـة وأشار في كتاباته كلها الـى الآثار الاجنبيـة التي أنصهرت في البيئة العربية الاسلامية .

ومـن هنا كانت كتابات الجاحظ تمثل هذا العصر أصدق تمثيـل، تمثله في الأحتكاك اللغوي الذي أفادت به العربية وفي الاحتكاك الاعتقادي الذي تشعبت به المذاهب والآراء ، وفي الاحتكاك البياني الذي تعقدت به حيـاة الفـن القولـي .

ولم يفصل الجاحظ كلامه في كل هذه الاتجاهات تفصيلا يقوم على التنظيـم والتقسيـم وانما مزج كلامه مزجا يتمثل فيه هذا التداخـل والاحتكـاك في أدق صوره ، وأعقد مسالكه ، ونحـن لا يهمنـا مـن ذلك كله الا ما يمس ما نحـن فيه مـن البيان العربي الذي تؤرخ لسير حيـاته ، وأغلب ما عرض له الجاحظ مـن اصول البيان انما ورد في كتاب البيـان والتبيـن .

فنـراه يطيـل القول فيمـا أثاره بشربـن المعتمد من ضرورة ملاءمة الكلام للسامع ، ووجوب خلوه مـن التنافر في الفاظه والتعقيـد فـي معانيـه وأن اسلوب الكلام ينبغي ان يكون وسطا بيـن الاغـراب والابتـذال كمـا عرض للكـلام عـن الجزالة والعذوبة ، وفي اثنـاء ذلـك يعـرض لاصول الوحدة العضوية في القصيدة وهو ما سمـاه بالقرآن وهـو الذي أشار اليـه ابـن قتيبة في مقدمة كتابه الشعـر والشعـراء .

ولم يقصر الجاحظ حديثه على الشعر وانمـا تجاوزه الى الخطابـة كيف تبدأ وكيف تنتهي ، كذلك عرض للسرقات الشعرية وضروبها ــ وفي اثنـاء ذلك يتناول في حديثه الكلام عـن الهنود واليونان والفرس وما كان عندهم من ضروب البلاغة وصنوف البيـان في صورة عامـة او اشارات عـابـرة •

ولكـن هذه الاشارات لها دلالتها على مدى تفاعل المجتمـع الاسلامي بغيره مـن المجتمعـات التي اتصل بها او احتك بثقافتها •

مـن هنا نـرى ان الجاحظ عرض في كتبه الى اصول البيـان العربي في صورته العامـة مؤكدا انـه يعتمد علـى اللغـة في التطور الاجتمـاعي والدلالي فليـس حديثه عـن الابتذال الا نوعا مـن الربط بيـن اللغـة نظاما متكاملا للتعبيـر عـن الفكرة وبيـن المجتمـع في استعمـاله لهذه اللغـة وهجره لبعض الفاظها واحيائه لبعضها الآخر ، وليس حديثه عن العامية والفصحى الاصورة اخرى من صور هذا الربط•

ومن هنا كانت هناك مدارس للفقه واخرى للغة وثالثة لرواية الشعر ودراستـه ،

ويظهـر ان العناية بالشعر كانت اسبق مـن النثر ذلك لان الشعر المادة الاولى التي يعتمـد عليها دارسو اللغة كمـا انه يعين على فهـم النص القرآني وفيمـا يرويه ابن سلام في مقدمة كتابه طبقـات الشعراء ، دليـل علـى هذه العنايـة اذ يقول فيما روى عـن عمر انـه قـال عليـكم بالشعـر فان فيه تفسيـر كتابكم

(٥) علاقة البلاغة بالاعجاز القرآن :

لم يكن بد من ان تثار قضية الاعجاز القرآني وقد اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وامتدت اطرافها وان يختلفوا عليها اختلافهم في اللغة والنحو وفي الفقة ، وفي بقية العلوم الاسلامية فتتعدد فيها الاراء ، وتختلف باصحابها المناهج ، ونحن نعلم ان كثيرا من الاتجاهات الاسلامية سواء في العقيدة ام في التشريع انما تنهض على اختلاف اصحابها في تفسير النص ، وهذا الاختلاف بدوره يعتمد على الاختلاف في النظرة الى اللغة ووظيفتها في التعبير واساليبها في البيان .

ويظهر ان قضية الاعجاز عاشت حياتها الاولى في اكناف المتكلمين وعلى عين منهم اذ كانوا يومئذ يمثلون جبهة الدفاع عن الاسلام بما يثار حوله من شكوك ، وما يتعرض له كتابه من هجوم، ومن هنا صح ان نقول ان البيان العربي انما نشأ في هذه البيئة وهي التي صنعت منه علما مستقلا له اصوله وقواعده ، وقد لحظ ذلك ابن تيمية .

فقال في كتاب الايمان ، ان اول من تكلم بلفظ المجاز ابو عبيدة معمر بن المتني في كتابه مجاز القرآن ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة وانما عنى به ما تعبر عنه الاية ، الى ان يقول ما خلاصته وانما تحددت معاني هذه المصطلحات البلاغية في بيئة المتكلمين ،

والمتكلمون لم يكونوا بمعزل عن التيارات الفكرية الجديدة بل

انهم درسوها وعاشوا فيها ، وشاركوا في انمـائها ، وقد ذكر اوليـري (وماكدونالد) هذه المشاركة • بل ا ناوليري يذهب الى ان المعتزلةكانوا اول مـن طبق اصول الفكر اليوناني ـ على الفكر الاسلامي ، وهـي دعـوى تحتاج الى نظر اذ فيها كثير مـن المجازفة ، لكـن يمكـن ان يقال ان المعتزلة كانوا مـن اوائل المسلميـن استجابة لهذا الفكـر فاستفادوا به في تصحيحالمنهج ، وتنظيم المعرفة ، وامدوا اللغة به فاكسبوها طاقات جديـدة

ولا نستطيع ان نظفـر بكثير مما تركه المعتزلة او المتكلمون بعامة في حيـاة الدرس البلاغي الا فيمـا يذكره الجاحظ فقد كان معتزليا صاحب فرقة ، وهو الى ذلك اديب شارك بجهده في صنع الحيـاة الادبية وتوجيهها فهـو اول مـن كتب نثرا فنيا بعيـدا عن الديوان وكتابته ـ متجها به الى المجتمع يصور ما فيه تصويرا فنيا يميل فيه الى الاستقصاء الدقيق ، وكتابه البخلاء انموذج مـن هذا النثر ، ويظهر ان عصر الجاحظ كان عصر اختلاط الثقافات وامتزاجها وهو العصر الذي بدأت تتحدد فيه اولية الدرس البلاغي ـ في صورة منظمة ـ سواء منه ما يتصل بشخصية المنتـج للادب ام السامع ، ام الخلق الادبي نفسه ـ

وفيما ذكره في البيان والتبييـن ما يصور هذه النواحي كلها فيذكر مطابقـة اللفظة للمعنى وخلو الكلام مـن التنافر والتكلف والتعقيـد وان يلائم المتكلم بيـن ما يقول ، وطاقة السامع ، واستعداده للفهـم وادراكه للمعاني ، وقد انفرد الجاحظ بملاحظ ينبغي ان نشير اليها لانها تشيـر سلفا الى القضيـة التي تثار اليـوم والتي قد اثارها مـن قبل

كثير من النقاد وهي علاقة اللغة بالمجتمع ، وتدريج اللغة حسب الطبقات الاجتماعية التي كتب لها العمل الادبي وبخاصة ما كان منه يعتمد على الحوار .

فالجاحظ يرى ان اللغة ينبغي ان تساير هذا التدرج الاجتماعي فالعامي يحكي كلامه باللغة التى يتكلم بها ويفهم عن طريقها الاثار الادبية وانه لمن السخف عنده ان يقال في لغة فصيحة لا تصور منزعه في البيان، ولا وسيلته في الاداء ، وهذه القضية قد اثارها النقاد في بداية القرن العشرين وحاولوا جهدهم ان ينمو دراسة اللغات العامية ، في جميع الاصقاع العربية ورتبوا على ذلك القول باقليمية الادب ثم اقليمية اللغة ، غير ان الجاحظ لم يكن يدعو الى هذه الاقليمية بهذه الصورة الرهيبة ، التي تقطع ما بين العرب من وشائج وتعزل كل اقليم عن الاخر عزلا تضطرب معه موازين الحياة النقدية فلا يكون ثمت بينها اداب مشتركة او قيم فنية ثابتة ، او ادراك واع لطبيعة الفن القولي، على ان الجاحظ يشير في اثناء كلامه الى ما كان لليونان من اثر في هذه النظرات البلاغية المتفننة ، كذلك استطاع الجاحظان يصل بين البلاغة وبين طبيعة الفكرة المعبر عنها من جهة الاطناب والايجاز اذ يقول في كتاب الحيوان « والايجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ، فقد يكون من الكلام ما يعد ايجازا مع طوله ، لان الموضوع عنده يحتاج الى تفصيل اطول ، وبسط اكثر ».

وفي هذه الفترة التي عاش فيها الجاحظ وضعت اول محاولة في علم الاصول وهي رسالة الشافعي وقد افرد فيها فصلا مطولا عن اللغة

ووظيفتها واسرارها في التعبيـــر ، وكل اولئك يسميه الشافعي في غيـــر الرسالة منطق اللغة وهو غير ذاك المنطق الذي وصل الينا عن اليونان

وفكرة المجاز كانت تحتل المكانة الاولى يومئذ لارتباط هذه الفكرة ـ بمقررات دينية كمـــا انها ترتبط عند المعتزلة بفكرة الرمز في اللغـــة

حقا انه لم تصل الينا اشارات عـــن هذا الرمز ولكـــن ما وصـــل الينا مـــن اثارهم في تفسيـــر النص القرآني يدل على ذلك ويؤكده وبهذا الرمز تدرج القول في المجاز في البيئة الاسلاميـــة واتسعت نواحي القول فيـــه ،

فاذا كانت اللغـــة في اصل وضعها رموزا لمعان فانها عند المعتزلة قد تدرجت مـــن رمزية الى رمزية فاليـــد مثلا ترمز لهذه الجارحة التـــي تمـــارس نشاطها متنوعا منـــه هو ما اعطاء ومنع ومنه ما هو بطش ولكن هذه اليـــد اذا نسبت الى الذات العلية ضاع او تترك المعنـــــى الاول واصبحت رمزا لهذا النشاط الذي تمارسه هذه الجارحة فاذا قال اللـــه تعالى (يد الى فوق ايديهم) كانت اليـــد هنـــا رمزا للقدرة ، واذا قال ولتصنع على عيني كانت العيـــن رمزا للعناية والرعاية ،

واذن فقد اتسع القول في المجاز عنـــد المعتزلة وهم في تقريرهـــم لقضاياه تفصيلهم للقول فيه انما يصلون بينه وبين العقيدة الدينية ذلـــك لان المعتزلة يبالغون في التنزيه ويرون ان القرآن نزل بلغة عربية فيجب ان يفهم على طرقة العرب ، وطريقة العرب منها ما يصور الحقيقة بما هي حقيقة مجردة عـــن الاعتبار الديني ، او النظر المذهبي ومنها ما يصور الفكرةمرتبطة بهذا الاعتبار وسائرة في مجاله، وقد ترتبعلى ذلك اختلاف

طبقات المجتمع ـ في تقرير المجاز اثباتا وانكارا في كثير مـن الايات التي وردت في القرآن • فمنهم مـن يرى ان في الاية مجازا ومنهم مـن ينكره ومـن هنـا وصل البلاغيون المتأخرون بيـن المجاز طريقة للاداء وبيـن العقل ودارت تعريفاتهم له على هدى مـن هذه الصلة ، وتقديـر لها سواء منـه ما سمـوه بالمجاز المرسل ام بالمجاز العقلي وقد فـرقوا بيـن المجازيـن بأن الاول خاص بالكلمة المفرد والثاني خاص بالتركيب وهي تفرقة غيـر دقيقة •

فاذا كانوا يعرفون المجاز المرسل بانه استعمـال الكلمة في غيـر ما وضعت له مع قرينة مامانعة مـن ارادة المعنى الاصلي ـ فقد قـرروا ضمنـا ان المجاز لا يكون في الكلمات المفردة وانما هو في التركيب جملة فمـثلا اذا سمعت قارئا يقرأ هذه الآية اني اراني اعصر خمرا وجردت كلمـة الخمـر عـن ملابساتها مـن الالفاظ فهمت الخمـر بمعنـاه المعروف الشاسع بيـن الناس واذا وصلتها بأخواتها انتهيت الى تقريـر المجاز لاستحالة عصر الخمرـ وقد كان الجاحظ وأضرابه يستعملون المجاز بهذا المعنى الذي يستعمـله فيه ابو عبيده وهو طرائف اللغة في التعبير ، والمجاز عنده بعض طرائقها ، وان كان القرن الرابع يخص المجاز بمـا اصطلح عليـه اخيـرا عنـد البلاغيـين •

وفي مطلع القرن الرابع ظهـرت الاصطلاحات البلاغية واضحـة محددة تعبر عن منهج واضح وتصور دقيق

و لا شك ان ارتباط البلاغة بالنص القرآني كمـا قلت اوجد اتجاهين

في درسها ، وقد أشار اليهما السيوطي في حسن المحاضرة عندما ترجم لنفسه اذ يقول وقد درست البلاغة على طريقة العرب لا المتكلمين •

وقد استفاد من هذه الأشارة الأستاذ امين الخول في كتابه فن القول فحاول أن يتبين خصائص كل اتجاه ابتغاء التفرقة الدقيقة بينهما ، ويظهران المعارك الكلامبة التي دارت بين تلك الاطراف البلاغة ، وتحديد مصطلحاتها تحديدا اقرب الى المنطق منه الى الروح المتقابلة في المجتمع الاسلامي كانت انشأت تحدث اثرها في تقنين البلاغة وتحديد مصطلحاتها تحديدا اقرب الى المنطق منه الى الروح الادبية ، فاتبعوا التعريف والتحديد في هذا التفريق ولجأوا الى المنطق الصوري الارسطي يستمدون منه العون فيما يكتبون واقتضى ذلك منهم ان يشققوا القول فيما عرضوا له تشقيقا يدعو الى السأم احيانا ، وقد كان من اوائل الذين نحوا هذا المنحى قدامه بن جعفر في كتابه نقد النثر وقد بدا فيه التأثر بما ترجم عن ارسطو ــ وقد عقد للشعر فصلا خاصا تحدث فيه عن ماهية الشعر مقسما اياه الى اربعة ابواب وهي المدح والهجاء والحكمة واللهو ويعرض في أثناء حديثه عن ذلك كله الى التشبيه والاستعارة والرموز الكناية والالتفات وما اليها من ضروب البلاغة التي استقر امرها عند الخالفين في العصور التالية لعصر قدامه •

قضية الاعجاز القرآني واثرها في تطور النقد العربي :

لقد عاشت هذه القضية في بيئة المتكلمين وهم الذين وقفوا جهودهم على تحديد العقيدة وبيانها حتى انهم اعتدوا الاعجاز القرآني

جزءا من اعتدها عاملا في تطور الفكرة وتعميقها كأبي تمام ومنهم من ناهضها ووقف منها موقفا معارضا كالبحتري ، واساس ، الاختلاف في تقرير الفلسفة اختلاف اولئك الادباء حول مضمون الادب وعلاقة هذا المضمون بالأديب نفسه .

فالذين يرون ان المضمون الادبي مضمون اجتماعي يرتبط بالحياة العامة ، وبالقيم الانسانية في تحديد الحق والباطل ، والخير والشر ، والجمال والقبح وكل ذلك مرده الى قيمتين هما الصدق والكذب .

ـ الذين يرون ذلك يعدون الفلسفة ضربا من المعرفة التي ينبغي ان يكتسبها الفنان أو الشاعر فتكون موضع اهتمامه وتجربته ومن اولئك ابو تمام ولم يصل الينا من اقوال أبي تمام ما يوضح هذه الفكرة غير ان صنيعه في انتاجه الشعري يؤكد ذلك أما البحتري وهو تلميذه فانه يخالفه كل المخالفة ويرى أن المضمون الأدبي شيء اخر لا علاقة له بالفلسفة ، ولا بفكرة الصدق والكذب وقد عبر عن ذلك في ابياته المشهورة التي يقول فيها .

كلفتمونا حدود منطقكم

وللشعر يغني عن صدقه كذبة

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه .

فابو تمام اذن شاعر متطور يؤمن بالمعرفة ، وتطورها أما البحتري فانه شاعر يصنع شعره كما كان يصنعه الجاهليون ، وكما رسم حدوده امرؤ القيس ذو القروح .

وكمـا اختلف الناس يومئذ حول المضمون اختلفوا حول الاعجاز فمنـهم مـن كان يـرى ان الأعجاز لخصائص انفرد بها القرآن الكريم، وهـي موضع عناية الدارس والكشف عنها ومنهم مـن كان يـرى أن اعجازه بالصرفة وهي ان الله تعالى صرف الناس عـن معارضته ولـم يقل بهذا الا ابو اسحق النظام وهو أستاذ الجاحظ وشيخه .

فقد رأينا اذن ان الفلسفـة التي طورت المضمـون الأدبي الـذي اختلف عليـه الشعـراء والنقاد معا هي التي عمقت القول في الاعجـاز القرآني ونمته ، ذلك لان للفلسفة صلتهـا باللغة التي تعبر عنهـا ولا نستطيع ان نتمثل فكرة فلسفية مـا لم تكـن لغتهـا متكافئة معها من حيث الأداء والتعبيـر .

ونحـن نعلم ان العقيـدة لا يمكـن فصلها عـن النص الدينـي لانه النص الذي نزل من السمال يحكم في لغته اصولها ويحدد اهدافها ، ويغري الناس بالنظـر فيما حولهم ليحسوا بأنفسهم أصول الاعتقاد فيما بيـن ايديهم مـن الظواهـر الكونية المتعددة التي لا يمكـن انعزالها عـن اسباب وجودها وعلة حياتها . وقد نزل القرآن ايضا بحكم اصول التشريع العمـلي المنظم لوسائل الارتفاق وأساليب التعـيش وضروب الكسـب

فالقرآن اذن بنزوله على هذا النحو انما يعد تطورا في المضمـون الفكـري والاعتقادي والعملي التشريعي وكان طبيعيـا عند تناولـه لهذه الاشياء كلها ان لا يعني بالتفصيلات وان يستعمل احيانا الرمز لقوته

في تصوير الفكرة وتحديد جوانبها ، والكشف عن ابعادها ، ولتذهب النفس المتأملة في تصورها كل مذهب يتلاءم وطاقاتها في الفهم والادراك ولقد كان من بين أساليب تحقيق الاعجاز وبيانه المقارنة بينه وبين بعض النصوص الجاهلية التي يمكن ان تلتقي واياه في بعض الجوانب التي عرض لها ، وقد استعمل الباقلاني هذا الأسلوب في كتابه اعجاز القرآن ولكن الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني في القرن الرابع ـ يرى ان الباقلاني جانبته النصقة ، فلم يختر من النصوص الجاهلية الا أقلها حظا من التفنن الجمالي ، ولقد عاشت فكرة المقارنة بين بعض النصوص القرآني وبين المأثور عن العرب حتى عند البلاغيين المتأخرين وانظر مثلا هذه المقارنة الطويلة التي يعقدونها بين قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة وبين المثل المأثور القتل انفى للقتل ،

وقد أشرت من قبل الى ان الدراسات الفلسفية التي اتصل بها المسلمون هي التي طورت القول في الاعجاز وذلك لارتباط العقيدة واستنباطها من النص باللغة ولذلك يعد بحث المجاز من البحوث التي التقت عندها الفرق الاسلامية كلها ونحن لا نريد بالمجاز ذلك المعنى الاصطلاحي الذي استقر عليه الأمر في البيئة الاسلامية وانما نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل سواء أكان في اللفظة المفردة أم في التركيب أم في الصورة الفنية كلها كما في الاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيلي •

(٤) ومن هنا نشأ البحث البلاغي في بيئة المتكلمين وعلى أيديهم

وكان للمعتزلة أكبر الآثر في انضاجه ذلك لانهم يرون التنزيه المطلق لله تعالى ويؤولون الآيات المتشابهة على هدى مــن طرائق اللغة في التعبير والبيــان ، كمــا أن المعتزلة أول مــن أثاروا فكرة التمثيــل والتحييل لاتصالها الوثيق بعمليــة التجوز ، كذلك عرضوا لقضيــة الحســـن والقبح أو بعبارة اخرى الجمــال والقبح وهل همــا ذاتيان في الأشيــاء أو ان الاشيــاء توصفان به •• وهذا البحث وان كان اساسا يتصل بفكرة الاعتقــاد وموقف العقل البشري منها أو بمعنى أدق موقف العقل البشري مــن الرسالات السمــاوية ، وهو يظل كمــا هو لا نشاط له يمارسه في الحكم على الأشيــاء أو ينتظــر حكم الوحي فيها •

ثم ان المعتزلة ايضا أثاروا فكرة المعنى وعلاقة اللفظ به •

كل هذه الاراء والافكار وان كان التاريخ صبغها بصبغة دينية انما هي كمــا رأينا تتصل اساسا بالقيم الانسانيــة وهي القيم التي يرتــد الحكــم عليها أولها للانسان نفسه فهو الذي يتكلم اللغة ، ويستعمــلها ويفــهم اشاراتها ومدلولاتها ، كمــا انه الذي يمارس نشاطه في نطاق القوى الممنوحة له مادية او معنوية •

وهو الذي يستطيع أن يتبين تلــك الخصائص التي أنفرد بهــا هذا النص فسمــا بها على كل قول ، وارتفع بها عن أن تتطاول اليــه طاقــة بشريــة مهــما كان حظها مــن القوة المتفننة « او الادراك النافذ »

وقد أشار العسكري في كتابه الصناعتين الى طريقة المتكلميــن في درس البلاغة ، وتجافى عــن أن يكــون مــن انصارها أو المدافعين عنها والمتأثريــن بمناهجها •

ولكن تجافيه لم يكن لان اولئك المتكلمين قصروا في هذا الدرس وانما لانهم صبغوه بصبغة دينية وأداروه في مجالها ، وكان رائدهم في هذه الدراسة تحقيق قضية الاعجاز بهذا التعصب البادي الذي لا يرتكز على اساس من الادراك الفني والجمالي لطاقات اللغة — ومهما تجاف العسكري عن مناهج المتكلمين فانهم في الواقع هم الباحثون الاولون في طرائق اللغة في التعبير عن الفكرة • ويمثل قمة المتكلمين في درس قضية الاعجاز موصولة باللغة ، وطاقاتها عبد القاهر الجرجاني ، وليست دراسة المتكلمين للغة من ناحية الدلالة وتطورها وحدود المعاني والكشف عن اطرافها الا نتيجة طبيعية لطبيعة عملهم في استنباط اصول العقيدة وتحديد معالمها •

ولقد عرض المتكلمون في بحوثهم لقضية اللفظ والمعنى ووقفوا منها مواقف متعددة واظهر مثل لذلك موقفهم من مشكلة خلق القرآن ، وآراء المعتزلة فيها ثم اراء غيرهم من حنابلة وأشعرية •

وقد ترتب على ذلك تعدد ارائهم في صفة الكلام ووصف الله تعالى بها كما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما •

وتظل هذه المشكلة (مشكلة اللفظ والمعنى) تتوزع العلماء وتتقاسمهم حتى يظهر الراغب الاصفهاني في القرن الخامس مناديا بأن الالفاظ ينبغي ان لا تفهم معزولة عن قرائنها وأن اللفظ المفرد ليست له دلالة مستقلة محددة تماما انما ينبغي أن يفهم مع غيره من الألفاظ التي تشاركه في الوظيفة اللغوية ، ومن هنا يختلف مفهوم اللفظ ضيقا

وسعة باختلاف موقعه من الكلاث ، ثم يحاول أن يكشف عن اسباب الاضطراب في فهم النص الديني بأن الناس صنفان : صنف ينظر الى أول المعنى وآخر ينظر الى آخره •

فاليد مثلا لها طرفان : تبدأ بالجارحة وتنتهي بالقوة فالذين يفسرون اليد بالجارحة نظروا الى أول المعنى والذين فسروها بالقوة نظروا الى غاية المعنى وطرفه الآخر ، والأولون هم اللفظيون والاخرون هم المؤولون •

أو بعبارة أدق الاولون هم المتمسكون باللفظ والاخرون هم الواقفون عند حدود الدلالة مقدرين تطورها في الاساليب الأدبية الراقية •

ولا نزاع في أن هؤلاء وأولئك انما يرتكزون في عملهم على أصول اللغة ووظيفتها •

فقد رأينا اذن ان طبيعة الدراسات المختلفة من أدبية ودينية واجتماعية كانت تقضي بأن يعاد النظر في دراسة اللغة على أساس من نشأتها وتطور دلالتها موصولا كل أولئك بطبيعة التطور الاجتماعي الذي ألم بالحياة العربية في جميع اتجاهاتها •

حقا ان تطور المضمون الادبي خلال العصور المختلفة كان نتيجة طبيعية لاتصال العرب بالحضارات وتقديرهم لما حفلت بها آدابهم على تفرقة منهم بين الآداب التي يدين اهلها بالوثنية والذين هم اقرب الى روح الاسلام في دعوته الى الوحدانية وقشرنا الى ان الفلسفة اليونانية كانت من بين الروافد التي أمدت الادب العربي لكثير ، لا

في تفصيل المعاني وتشقيقها وجمع أطرافها والتوغل في شعابها فحسب كما صنع ابن الرومي في كثير من قصائده بل في تحقيق المعاني ووزنها بميزان الصدق وعلاقتها بالتجربة الشاعرة وبالواقع الانساني وبالدوافع المحيطة بالفنان نفسه •

والواقع أن هذا التطور في المضمون هو الذي أدى الى ظهور هذه النظريات المتعددة حول القديم والجديد واللفظ والمعنى واختلاف النقاد في ترجيح احد الطرفين على الآخر أو التسوية بينهما وتظل هذه النظريات تؤدي نشاطها في بيئات النقاد على اختلاف منازعهم وتباين مسالكهم بل ان اولئك انشأوا يقيمون العمل الادبي على هدى منها حتى ظهر عبد القاهر الجرجاني فوضع نظرية متكاملة في النظم أودعها كتابيه اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز •

ويعد عبد القاهر بهذه النظرية الواضع الحق لاصول البلاغة العربية كما تمثلها هذه النظرية وليس عبد القاهر أو من تكلم في النظم فيما نعلم بل ان الكلام فيه عرفته أجيال وأمم أخرى ممن عنوا بالدرس البلاغي موصولا بأثر فني توافرت له اسباب الخلود والابداع ، فقد عرف الهنود النظم وفصلوا القول فيه ، ووصلوا بينه وبين اللغة كما عرفه اليونان ، والذي دفع الهنود الى التفكير في هذه النظرية انما هو كتابهم الديني الذي قالوا باعجازه لخصائص فنية يمكن الكشف عنها وقد اشار البيروني في كتابه تاريخ الهند الى هذا الاعجاز وأثره في تنشيط الدراسة النقدية عندهم •

ويظهر ان اتصال المتكلمين في البيئة الاسلامية بتراث هذه

الأمم أيقظهم الى ضرورة البحث في أصول هذه النظرية عندهم لتطوع لديهم الوسائل الى الكشف عن الطاقات المعجزة التي جاء بها النظـــم القــرآني •

وأهم ما تمتاز به هذه النظرية انها اتجهت الى اللغة باعتبارها نظامــا متكامــلا يتم به اداء الفكرة او المضمــون بطرق مختلفة ترتفع أو تهبط حسب قدرة المعبر وادراكه لوظيفة اللغة وتمكنه مــن طاقاتها •

خضوع الدرس البلاغي لمقتضيات الحضارات التي اتصل بها المسلمون:

لا نستطيــع ان تتبين هــذا الخضوع ولا ان نشخص مظاهــره المختلفــة ما لم تتعرض في اجمــال الى تغير الحياة الاسلاميــة واختلاف مذاهبها باختلاف العصور التي مرت بهــا •

واذا كان مــن المقرر في الدراسات الادبيــة التاريخيــة انــنا لا نستطيــع ان نفصل عصرا عــن اخر فليس ثمة عصر لاحق مستقل بنفسه مكتف بمــا فيه ، وانمــا هو يمثل قمة ترتكز على قاعدة هي هذه العصور وليست تلك الاضافات الجديدة التي يضيفها عصر ما بقاطعة صلته بهذه العصور السابقة بمحتوياتها في الادب والفن والاختراع ، عليه ولا تصلح ان تكون اساسا لاستقلال هذا العصر واكتفائه بنفسه •

فالبلاغة العربيــة ــ في صورتها التي انتهت بها الينا ليست الا نتائج لتتابع هذه العصور وما كان فيها مــن تطور حضاري او عمراني ، والواقــع ان العصور الادبيــة العربيــة حتى فيما انتهت اليه الدراسة التعليميــة ، تؤكد ما نقول به ، وندعو اليه ،

فاذا كان العصر الجاهلي يمتد فيما نعرف الى اكثر من مائة وخمسين سنة قبل البعثة فيما يحدده به الجاحظ ، فان هذا العصر لم يكن في حياة الفن القولي — سوى عصر البلاغة في التعبير ، والتفاوق في الاداء ، وهو يمثل قمة التطور في حياة اللغة — بهذا الاعتبار وقد ادى ذلك الى وحدة الصورة للجملة العربية وهي هذه الصورة التي دار عليها الدرس البلاغي فيما بعد ، وبهذا نستطيع ان نفسر كيف اخذ النحو العربي صورته الاولى على يد سيبويه في الكتاب برغم تقدمه زمنا ، فاذا كانت البلاغة بعد ذلك تبحث — في تفصيل صورة من صور الجملة على صورة اخرى لان المقام يلزم به ، فان النحوي لا يعنيه البحث في ذلك الاختيار والايثار لان اللغة عنده هي ذلك المركب الذي يطوع استعماله لكل متكلم به مهما كان حظه من الفكر ونصيبه من الثقافة ، اما البلاغي فانه ينظر الى اللغة نظرة ارفع وارقى من ان تكون وسيلة لتوصيل الفكرة ، او التعبير عن القصد ، فهي عنده هذه القدرة على التعبير الذي يعتمد على حسن اختيار الكلمات ذات الاثر البالغ ، والفرق بين الادب وبين غيره من الاحاديث العامة ان الادب لغة راقية ، يقول سابير في كتابة اللغة، نشأتها وتطورها بالانجليزية — ان اللغة متى ارتقت انتقلت الى مرحلة اخرى فسميت ادبا .

ويبدو ان ذلك كان الاحساس العام الذي يصدر عنه تقدير العربي للغته ، ولا شك ان هذا الرقي الذي تحظى به اللغة يوحي دائماً بنوع من الدرس المقارن بين اللغة في عصر وعصر اخر حتى

يستطيع الدارس ان يدرك ابعاد هذا التطـور واسباب ذلك الرقي ، ومـن هذه الدراسات المقارنة ينشأ الدرس البلاغي وينمو ويزدهـر ازدهـارا كبيـرا •

واذا اردنا ان نقف على مراحل تطور الدرس البلاغي في البيـئـة العربيـة في صورته البيتة وملامحه الكاشفـة لم تكـن لنا مـن سبيل الى هذا الدرس سوى هذه المقارنة ، وقد احس الاقدمون اصول هـذا المنهـج فيمـا تركوا مـن نظرات دالة على اصالة الشعوريه وان كان قد تطور الدرس البلاغي فيـما بعد الى هذه الصورة الجافة •

والقصد مـن ذلك ان نستشف الاسس التي قام عليها الـدرس البـلاغي عبـر هذه العصور وان نصل مـن تحديدها الى التيارات العامة التي كانت توجه هذا الدرس والتي أنمته نموا مطردا •

وهنا نسأل : هل قام هذا الدرس على اساس مـن شعور العربي بحاجته اليـه او تقدير العربي لحاجة المجتمع الاسلامي اليـه بعد ان انصهرت فيـه هذه الاجناس المختلفـة فكونته على هذه الصورة التي انتهى اليها بناؤه مقدرا الى ذلـك ان عوامـل التوحـد في الاذواق والمشارب واللغـة انشأت تحدث اثارها الواضحـة في هـذه الصورة
ان الاجابة عـن هذا السؤال تقتضي ان نتابع القول فيتطـور العصور التاريخية مشيرين الى الاحداث الكبرى التي المت بحيـاة المجتمع العربي والتي كان لها اثارها في تطوير اللغة نفسها والذوق القاضي على هذه اللغة ، والمجتمع المستعمل لها •

ونحن لا نستطيع ان نغفل ان العربي في جزيرته كان يلتزم بمقررات فنية لا يستطيع الخروج عليها او مجانبتها وبخاصة من كان منهم يمارس الفن القولي ممارسة جادة مازته عن غيره من افراد عشيرته حتى عد من مفاخر هذه العشيرة يذب عنها اذا نال منها شاعر اخر فيتحدث عن اثارها ويذيعها في الناس ، ويتخذ من امجادها مادة لاعماله الفنية ، وقد حرصوا فيما صنعوا من الشعر على اشياء استقرأها الدارسون فيما بعد .

وهي : الوزن ، القافية ، والصورة الشعرية ، التي يمتاز بها هذا الفن عن سواه من الفنون والتي تعتمد على التخيل او الخيال او بعبارة اخرى على ملكة تعيش في اعماق الانسان وهي ملكة لا يستطيع التصرف فيها تصرفا اراديا وانما هي موهبة لا تتاح الا لمن شفت قصيرته ورهف حسه ، ودقة رؤيته للاشياء ، وقليل ما هم : ولا شك ان اخراج العمل الفني مسكملا لهذه الاشياء كان يحتاج الى قدرة خاصة تمكن من التصرف في اللغة يقول يوتر في كتابة لغتنا بالانجليزية ان المعرفة قدرة ولكن القدرة على اختيار الكلمات المعبرة عنها اقوى واشد ويظهر ان هذا الاختيار من جانب العربي البادي في صحرائه كان يعتمد على هذه الرهافة وذلك الاحساس ، فلما انتقلت العربية الى البلاد المفتوحة وتداعت الامم المفتوحة الى دراستها حتى يستطيع افرادها ان يمتلكوا ناصيتها فتطوع لهم انشأ الدرس البلاغي المعين على ذلك كله يأخذ طريقه الى الوجود في صورة عامة غامضة ، وكان اولئك الدارسون يعتمدون على

امريـن اولهمـا دراسة النصوص الجاهليـة ثم المقارنة بينها وبيـن الانتاج الفني لمـن تعلـم هذه اللغة . فكل انتاج جديد اتبع طرائـق الاقدميـن انتاج جيد ، وكل انتاج لم يتبع هذه الطرائق سقط مـن حساب النقد بل سقط فيمـا يقدرون مـن حساب الفـن القولي بعامه ؛ ثم ظل ذلك هو المنهج في العصر الاموي ـ فلما كان العصر العباسي تغير وجه الحيـاة العربيـة تغيرا اخر وبذلك التغير اضطراب الرأي بيـن النقاد فمـن حريص على الموروث مـن التقاليـد الفنية ، ومـن مأخوذ بهذا التغير حفى به وقد سمـوا الشعراء الذيـن ظهروا في هـذه الحقبة بالمحدثين او المولديـن والتسميـة لها دلالتها على هذه النقلة التي تعرض لها النقـد الجمـالي في البيئة العربيـة فظهرت مشكلة القديم والجديد وجوهر هذه المشكلة كان النظـر في الاسلوب وفي طريقة التعبير وتروى روايات تدل على هذا الاتجاه فقد ذكروا ان بشار بن برد حيـن قال قصيدته الت مطلعها :

بكرا صاحبي قبل الهجير الهجير   ان ذاك النجاح فيالتبكير

لفت نظمه احد السامعين ذلك لانه احسـس ان هذا النظم لا يتفق وما اوحت بـه هذه النقلة وما اقتضاه ذلك التغير فالحضارة بطبيعتها امتداد في ذوات الاشياء الحضارية بخلاف البداوة التي لا تعرف هذه الامتداد بل ولا تساعد عليـه ظروف الحيـاة فيها فاذا كانت الحياة في الحاضرة تختلـف عنها في البادية اختلاف ما بين البيئتين الماديتين فان اللغة ـ ولا شك ـ تخضع لهذا الاختلاف بل انها المرآة التي تنعكس عليها اثاره وتبدو في نسجهـا اسبابه ودوافعه ، واللغة في الحاضرة تميـل الـى البسط

والاطناب ، ومـن هنا قال ذلك السامع لبشار لم لم تقل وان ذاك النجاح في التبكير فتأتي بالواو الكاشفة عن ربط عجز البيت بصدره فاجابه بشار انما بنيتها اعرابية .

ولا يريد بشار من وصف بناءقصيدته بانها اعرابية انه آثر فيها حوشي الالفاظ فلا يستبين منها المعنى الا بجهد ومشقة وانما اراد الايجاز لان في نظم البيت ما يدل عليه ذلك ذلك لان الجملة اذا وقعت من الجملة السابقة عليها موقع العلة حسن فصلها عنها مع تأكيدها بان كذلك يصنع القرآن في كثير من اياته كما في قوله تعالى وما ابرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء فان جملة ان النفس تقع من الجملة الاولى موقع العلة .

وهذه الرواية لها دلالتها على ان هذه النقلة الجديدة طفقت تحدث اثارها في تغير النظر الى اللغة والى بناء الاسلوب وطرائق وصل الجمل بعضها ببعض وسوف نلحظ فيما بعد ان الوصل والفصل اللذين اشار اليهما بشار كانا من بين الموضوعات البلاغية التي عنى المتأخرون بدرسها تفصيلا بل انهم اعتدوا ان البلاغة في الفصل والوصل ، ومقصدهم من ذلك ان دقة هذا الباب دقة بالغة تحوج الى عمق في الادراك ، ونفاذ في الرؤية وحساسية في الاذن ، وشفافية في الذوق ، ولم يقف اثر هذه النقلة عند اللغة في نظمها وتحقيق الالف بين كلماتها على صورة تخالف ما كان عليه الامر قبلا بل تجاوزه الى بناء القصيدة نفسها ويروى عن ابي نواس في ذلك اخبار تدل على ضيقه بالتقاليد الموروثة في بناء القصيدة العربية وفي ذلك يقول :

لا تبك هذا ولا تطرب الى وعـد
واشرب على الورد مـن حمراء كالورد

فالبكاء على الاطلال ، وتعقب اثار الديار ، والحديث عـن الرحلة والناقة كل اولئك لم يرض عنه اصحاب هذه النقلة ، ولكـن تيـار التقليـد كان اغلب فظل القوم يمارسون نشاطهم الفني في الاطـارات المعروفـة وان كان قد شاع في اوائل العصر العباسي المقطعات القصيرة وهي تمثل الوحدة العضوية لبناء العمل الفني ، تمثيـلا دقيقة •

والنقاد مـن وراء ذلك كله يسجلون اثار هذه النقلة فلا يتعصبون لفريـق على اخـر ولا يعلون مـ شأن اتجاه على اخرو وانما هم يرقبون هذيـن التياريـن في صراعهمـا مسجليـن ما يشاهدون مـن اثـار هذا الصراع •

ولا يقف الامـر عنـد هذا لدى النقاد بل يتجاوزه الى اللغويـن واصحاب النحـو فتهولهم هذه النقلة ولا يكادون يعترفون بها ــ تطورا في حيـاة اللغـة ــ ينبغي ان يدرس وانمـا يقفون في استشهادهم على اللغـة عنـد العصريـن الجاهلي والاسلامي ــ ويخطئون من خرج من الشعراء على ما استقرأوه مـن القواعـد مـن شعر هاتيـن الفترتيـن فسيبويه مثلا لا يستشهد بشعر بشار الا حيـن اطلق فيه لسانه ، فاسكته بالاستشهاد بابيـات قليلة •

بل انهم فوق ذلك كله انشأوا يخطئون هؤلاء الشعراء ومنهم أبو نواس وقد ذكره النحاة لهذا الخطأ امثلة من شعره منها قوله :

كــان صغــري وكبري مــن فقاقها
حصبــاء در على ارض مــن الذهب

ذلك لان افعل التفصيــل لا يؤتي بعده بمــن اذا كان مطابقـــا لموصــوفــه •

وحيــن اشتــد الصراع بيــن انصار القديم والجديد لا في بنــاء الاسلوب وتركيب العبارة بل في المعاني والاخيلة ــ وجدت فكرة الطبقات ونلحــظ في هذه الفترة ظاهرة تحتاج الى مزيــد مــن التأمل ــ وهي ظهــور الطبقات في رواية الحديث وفي الشعر ــ والاتجاه يكاد يختلف بيــن المظهريــن وكان اسبق ما وصل الينا مــن طبقات المحــدثيــن الطبقات الكبيــر لابــن سعد ، كمــا كان اسبق ما وصل الينا مــن طبقات الشعــراء طبقات الشعراء لابــن سلام الحجمي وقد ماتا جميعــا في اوائل القرن الثالث الهجري •

وليست فكرة الطبقات ــ في حياة الشعراء الا مظهرا مــن مظاهر ادراك النقاد في هذه الفترة لطبيعة العمل الفني وانه يخضع في وجـــوده لعوامل كثيرة ــ اهمها انتاج العصور السابقة عليــه ثم الموهبة الفنيــة التي يمتــاز بها منتج العمل الادبي •

مــن اجل ذلك قسم اصحاب الطبقات الشعراء الى طبقات وحرصوا في هذا التقسيــم على التدرج الزمني في حياة الشعراء ما استطاعوا الى ذلك سبيــلا وحاولوا ان يتبينوا خصائص كل طبقة مــن هذه الطبقات وكان ما صنعوا مقدمة نافعة لفكرة الدراسة المقارنة بين الانتاج الادبــي

في عصوره المختلفة وبخاصة ما يتصل منه بحياة الادب العربي بعامه •

فقد رأينا من قبل ان القيم الجمالية التي يعتمد عليها الناقد قد طفقت تتغير سواء في الجمال الحسي ام في الجمال الذي لا يقيمه الحس وانما نشعر نحوه بشيء من الراحة ، والرضى وهو ما يمكن ان نسميه بالجمال الفني القائم على الدراسة والتحليل •

فقيم الجمال في المرأة قد تغيرت كانوا ـ كما صورها الشعراء الجاهليون ـ يحبون فيها سواد الشعر وحور العين وبضاضة الجسم وامتلاؤه ، وطول الشعر واسترخاءه ، وبهذا ورد القرآن في تصويره لنساء الجنة ، في قوله تعالى : حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، اما في العصر العباسي فقد انشأوا يتجهون الى قيم اخرى ، نستطيع ان نلحظ صورة لها ـ في هذا البيت الذي يرويه البلاغيون •

فامطرت لؤلؤا من نرجس وسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد

واخذ التصنع يأخذ طريقه الى حياة المرأة وهو ما يحدث دائما عند التقاء الحضارات في بيئة ما ـ والمراة في كل عصر بسلوكها وزينتها ومواطن الفتنة فيها ـ المقياس الدقيق للتغير الحضاري الذي تتعرض له الامة اذ انها تحرص دائما على ان تستجيب لكل جديد وتهرع الى كل بدعة ، وتفتن في استغلالها والانتفاع بها على اي نحو من الانحاء •

(٥) من هنا بدأت الصنعة والتصنع يأخذان طريقهما الى كل مظاهر

الحياة الجديدة حتى ان النقاد انفسهم الذين ظهروا في هذه الفترة سموا كل علم او فن صنعة فابن سلام في اول طبقاته يقرر ان الشعر صناعة وانها تتعاطى كسائر الصناعات وان الاحتفاء بها ، والتأنق فيها ، دليل على قوة الفنان وصلاحيته للابداع الفني ولم يعد النقاد يربطون بين الفن الشعري والطبع بهذا الربط الذي كنا نستمع اليه عند اصحاب النظرات النقدية من المتقدمين ، ذلك لان الفن في هذه الفترة اضحى كغيره من الفنون دراسة يتجه اليها المرء ، ويأخذ نفسه بها ويتلقاها عن اصحابها كأي علم من العلوم التي كانت تعقد لها الحلقات في المساجد وفي بيوت العلماء ، ومجالسهم وكان من المعلمين يومئذ من اخلص نفسه لدراسة الشعر ونقده ، ومنهم من احس في نفسه القدرة على ان يجاري فيه المطبوعين قبل هذا العصر فكان الانتحال في ادق صوره عند خلف الاحمر واضرابه من الرواة والمتصنعين ، ولولا ما اخذ به نقاد الشعر انفسهم يومئذ من المقارنة بين صنيع اولئك المنتحلين ، وبين انتاج اسلافهم من الشعراء المطبوعين ما عرف هذا الانتحال ولا تمهدت السبيل الى ادراك خطره •

اثر الترجمة في تطور الفن القولي ونقده :

وفي هذا العصر نشطت حركة الترجمة من مختلف اللغات وكان الذين يتولون هذه الترجمة هم السريان وهنا تظهر مشكلة لا بد من القول فيها ويمكن ان توضع في ذاك السؤال :

لم لم يترجم العرب الادب اليوناني كما ترجموا بعض الاداب الاخرى ؟

يختلف الباحثون في تعليل احجام العرب عـن ترجمة هذا الادب او بعضه الى العربيـة

فمنهم احمـد امين في ضحى الاسلام يقول ما خلاصته انهم لـم يترجمـوه او بعضه لان الغالب عليـه الوثنيـة وهي تناقض الاسلام في ادق ما دعا اليـه وهو الايمـان باله واحد لا شريك لم ثم ان هذا الادب اغلـب ما يعرض له مـن الفنون الادبيـة الادب التمثيلي والمرأة عنصر اساسي في التمثيـل وقد جاء الاسلام بحجاب المرأة ٠

ومنهم مـن ذهب الى ان العرب لم يجدوا في انفسهم حاجة اليه لاكتفائهم بادبهم واعتزازهم به ، وهم اهل الفن وبينهم نزل القرآن وكلا الرأييـن لا يثبت عنـد النظر فقد ترجم العرب مـن اداب الامم الاخرى وهي لم تكـن تديـن بديـن موحد على ان المرأة لم تشترك في التمثيل عنـد اليونان الا في فتـرة متأخرة نوعا ما وقد ذكر سانكلير في كتابـه تاريـخ الادب اليوناني

ان المرأة لم تقف على خشبة المسرح الا في الاسكندرية ، واغلب الظـن عندي ان العرب اهتموا اولا بترجمة العلم لانه الوسيلة القوية لصيانة اقتصاديات الدولة الاسلاميـة وقد تقدمت مرافقها وتنوعـت طرائق اكتساب العيش فيها يدل على ذلك ان اول ما ترجمـوه مـن الكتب كان كتاب الفلاحة النبطية ، ثم ترجموا كتب الكيمياء والفيزيـاء وما اليها مما تنمو به مرافقها ، ويقوى به عمرانها فلما تم لهم ما ارادوا انشأوا يتجهون الى ترجمـة الادب ووسائل نقده فاتجهوا الى ارسطـو في كتابيه الشعر والخطابة ٠

وهنـا تواجهنا مشكلة اخرى وهي ، هل فهم العرب هذه الكتب حيـن ترجمـوها او كمـا يقول كثير مـن الدراسين لم يفهمـوها وترجمـوها فاخطأوا في كثير مـن فهم مصطلحاتها وتطبيقها .

سواء فهم العرب هذه الكتب فهمـا دقيقا او فهموها فهمـا اجماليا ـ فانا لا تستطيع ان ننكـر ان هذه المترجمـات احدثت اثارها في النقد العربي ـ وفي البلاغـة العربية على العمـوم ، وعلى هدى منها توسع القـوم في تشقيق القول وتفصيـل الكلام في كل جزئية من جزئياتها .

ولو حاولنا ان نتتبع مظاهر هذا التأثر فيمـا ترك العرب مـن اثار نقديـة وجدنا ذلك اوضح ظهورا وابيـن ملامح في نقد الشعر ونقد النثر لقدامه بـن جعفر مع تأثره بالمنطق في ضبط الابواب وتنظيـم التقسيـم ، والامعان في تطبيق اصول التعريف والتحديد المنطقيين .

على اية حال ادى ذلك التغير في اللغة وبناء الاساوب ، وفي القيـم الجمـاليـة وفي الصناعة والتصنع الى ان تظهر فنون في القول وضروب مـن البيـان لم يعرفها السابقون بهذه الصورة المسرفة وعلى هذا النحو المتعمـل فكان مـا اصطلح على تسميته بعد بالبديع عنـد بشار وابي نواس ومسلم بـن الوليـد ثم ابي تمام .

وفي اصطلاح القوم يومئذ على تسميته بالبديع شعور بجدةالموضوع فالشـيء المبدع او البديع الذي لم يجر على مثال سابق ، ويرغم ان ابـن المعتز في اول كتابه البديع ينكـر ان ما عناه اولئك الشعراء مـن الوان البديـع وما نشطوا له مـن تصنيع فيما تركوا مـن قصائد لم يكـن من

خصائصهم ، التي انفردوا بها وامتازوا عن سواهم من السابقين فانا نقدر ان ذلك من ابداعهم وان جاء عفوا وبغير تصنع فيما ترك بعض الشعراء السابقون اذ يقول ابن المعتز في مقدمة كتابه قد قدمنا في ابواب كتابنا هذا ما وجدنا في اللغة وفي احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والاعراب وغيرهم واشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون ـ البديع ـ ليعلم ان بشار او مسلما وابا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فاعرب عنه ودل عليه» •

ومن هذه العبارة نستطيع ان نخلص الى اشياء يمكن ان تعد ميزانا او معيارا في العمل النقدي او في تعليل بعض الظواهر الفنية موصولة الاسباب بالتطور الحضاري الذي تتعرض له الامة فيغير من حياتها ويعدل من قيمها ويصوغ بعض جوانبها صياغة جديدة تخضع لهذه المقومات الجديدة •

ففي هذه الفترة انشأت الشعوب التي دخلت في الاسلام تستعيد ماضيها ، وتحاول جهدها ان تحي ما اندثر من اثارها ، وبخاصة انها اصبحت تكون جزءا هاما في كيان هذه الدولة فكانت الشعوبية بأجلى مظاهرها احدى الاساليب التي اتخذتها هذه الشعوب لتنفذ من خلالها الى احياء تراثها وقد ادى ذلك الى ان يأخذ البحث العلمي او النقدي مظهرا من مظاهر التعصب ، والمحدثون من الشعراء وان كان منهم من لم يؤمن بهذه الشعوبية او يدع اليها فان المتقدمين منهم ساندواهذه الدعوة وايدوها وتروى عن بشار ابيات يشيد فيها باسلافه

ويعدهم مــن مفاخر الاعجميــة وساداتها اذ يقول :

ونبئت قومــا لهــم احنــة
يقولون من ذا وكنت العلــم

الا ايهــا السائلى جاهــلا
ليعرفني انــا انف الكــرم

نمت في المكــارم بى عامــر
فروعى واصلى قريش العجم

وهؤلاء الشعراء هم الذيــن ظهرت في انتاجهم معالم التطور الجديد الذي اصبح به المجتمع الاسلامــي يمثل لوحة فنية جديدة • فكــل جديد جاءوا بــه او زخرف صاغوه ، او ابتداع انفردوا به ليس جديدا في نظــر العرب وبخاصة نقادهم ، ومــن هنا حاول ابن المعتز ان يقرر صراحــة انه ما ترك الاول للاخر شيئا والاولون عنده هم العرب •

بهذا الاضطراب الذي ساد الحيــاة العربية في البلاد المفتوحة : من دعوات متقابلة بعضها يؤيد القديم ويدعو اليه ، والبعض الاخر يشيد بالجديد ويؤمــن به ، وبين هذه المعارك الناشبة بين هذه الاطراف اتسع القول في الفن البلاغي ــ الى جانب المؤثرات الاخرى التي عرضنا لهــا اجمــالا ، وقد استبد البديــع باهتمام الدارسيــن حتى عدت البحوث الاخرى المتعلقــة بالاستعارة والتشبيه والكناية والمجاز من ابواب هــذا العلــم وبعض فصولــه •

وحتى الذيــن كتبوا في اعجاز القرآن مــن المتقدميــن او ممــن نشأوا في غمــارهذا الصراع وشاركوا فيه غمرهم الاتجاه البديعــي فخلطوا بين بحوثه والبحوث الاخرى •

فالروماني في رسالته عن اعجاز القرآن يخلط بين البديع وبين غيره وقدامة اتخذ نفس الاتجاه •

وهكذا نرى ان البديع كان اهم الابواب البلاغية التي استأثرت بعناية الدارسين يومئذ وانفردت بتقديرهم •

ذلك لان البديع صناعة والعصر عصر صناعة في كل شيء في اختيار الالوان ، والاطعمة والتشبه بالملوك الذين اصبحوا امانة – في ذمة التاريخ •

ثم هو عصر التقليد والمحاكاة في كل مظهر جديد او بدعة اخاذة •

(٦) (احساس البلاغيين المتأخرين بخطورة هذا الاتجاه ومحاولتهم العناية بدرس اللغة)

قد رأينا من قبل ان العناية بالبديع والزخارف القولية كانت قد حددت النقاد والبلاغيين في اطار ضيق ، حتى الذين كتبوا منهم في النقد الخالص كصاحب الوساطة والموازنة بين الطائيين لم يخرجوا عن هنا الاطار غير ان الجرجاني في الوساطة حاول ان يضع في مقدمته اصول نظرية نقدية متكاملة ، تعتمد على ان يكون الناقد موضوعيا فلا يأخذ عليه التعصب طريق الانصاف وان الفن القولي سواء منه ما يتصل بصياغة اللغة ام الفكرة لا ترتبط جودته بعصر دون اخر ، ولا تقتصر عبقريته على شاعر دون اخر فأمرؤ القيس يستوي في ذلك مع بشار وهو الى كل ذلك كله يقدر التغير والتطور ، ويشير اليه في بعض المواضع مؤكدا له ، ومقررا لأثاره •

غير ان هذا الاتجاه من جانب اولئك النقاد لم ينم عند غيرهم النمو الذي تتطور به تلك النظرية فتصبح كائنا نقديا منفصلا يمثل حلقة من

حلقات التاريخ النقدي عند العرب ، وانما ظل تناولهم اياه خفيفا رفيقا يأتي عرضا ، وبغير قصد لافراده واستقلاله غير ان بعض هؤلاء النقاد كان جريئا فيما اصدر من احكام ، وما لفت اليه من ظواهر لغوية او فنية ، واخصهم الجرجاني فقد قدر الرجل ان اللغة نظام وهي في نظامها مظهر لعامل الوحدة الرابطة بين اطراف الجماعة التي تتكلمها مهما يكن امر الحياة الاجتماعية بينها ومن هنا خطأ هذا الرجل امرأ القيس في جزم المضارع دون ان يكون في العبارة عامل من عوامل الجزم في قوله •

فاليوم اشرب غير مستحقب : اثما من الله ولا واغل كما قدر الرجل ان المعاني في اصولها ومقوماتها قيم فنية يحرص عليها صاحب الانتاج الفني مهما يكن حظه من الابداع والاختراع ومن هنا خطأ بعض الشعراء في بعض ما اوردوه من فتون الاستعارة والتجوز • ولا شك ان هذا التطور في درس الفن القولي على هذه الصورة الجزئية شيء يلفت الى ان النقد الادبي اضحى يدعو الى مبدأ الانصاف في الحكم ، والدقة الواعية في اصداره ، معتمدا على النظرة الشاملة ، والاستقصاء البعيد ، وان فكرة ما ترك الاول للاخر شيئا لم يعد لها مكان عند اولئك النقاد بل الاصل في المفاضلة والاساس في التمييز هو الخضوع للاصول اللغوية ، والاحساس المشترك باصول المعاني •

والفيصل عند الآمدي في هذا كله هو دقة النظر التاريخي ، وتقدير النواميس العامة التي تسير الحياة اللغوية والفنية معا ،

فلما كان العصر المتأخر نوعا ما واقصد به حدود القرنين الرابع

والخامس وقد اخذ الفن القولي يتطور الى مرحلة اخرى اخذ الدرس البلاغي ايضا يسير مع هذا التطور ويعيش في اجوائه .

ولا بد من ان نقول كلمة عن اسباب هذا التطور الجديد وعوامله ، وقد بدا لنا من قبل ان التطور الذي الم بهذا الفن في بداية العصر العباسي كان مرده الى طبيعة التغير الذي شمل جوانب الحياة الاسلامية كلها في السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر وان هذا التغير ادى الى نمو اللغة واتساعها وشيوع الجدل والمناظرات في الفقه واللغهوالادب ، ثم محاولة اللفت الى نظريات جديدة في توثيق العمل الفني عند صاحب طبقات الشعراء وهو ما اصطلح على تسميته بالانتحال .

واما ذلك التطور الجديد فانه يتمثل — في ظهور اثار ذلك العصر السابق في انتاج الشعراء فالمتنبي مثلا وهو احد معالم ذلك التطور احدث في النقد العربي ضجة ترجم عنها ابن رشيق في العمدة بقوله فلما ظهر المتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس كذلك انشأ ابن الرومي يعنى بتفصيل المعاني واستهلاكها في بسط التعبير ، وتشقيق القول واللفت الى ادق الدقائق فيه وعند ابن الرومي تظهر بوضوح — الوحدة العضوية في القصيدة على نحو اخر غير ذلك الموروث من التقاليد المرسومة للقصيدة العربية كما انه انشأ يتناول المعاني الاجتماعية في صور مجسمة تبدو للعين شاخصة ماثلة ثم ان ابا العلاء المعري اتخذ الشعر وعاء للفكر الفلسفي العميق فتناول مشكلة الحياة والموت والمرأة واثارها في هذه المشكلة .

بل انه انشأ يعرض للقيم الدينية في صورة قصة يقارن فيها بين

الحيـاة الدنيـا والاخرة ، وصلة كل منهما بالاخرى ـ وكل اولئك كان يستغل فيه مصدريـن :

همـا الفلسفات الانسانيـة شرقية ويونانيـة ، ثم النصوص الدينيـة في تصويرها للحيـاة الاخرة ونعيمها وشقائها وصلة ذلك كله بالانسان من حيث انه المسؤول الذي احتمل الامانة ، ورضى لنفسـه منـذ الازل ان يكون القائم على تنفيـذ الارادة الالهية في كل جانب من جوانب الحيـاة .

ونلاحظ ان كتب النقد الادبي العربي لم تتعرض في بحوثها المتعددة الـى هذا اللون مـن الادب ممثلا في رسالة الغفران وانما ظلت تقصر نفسها على الجمـلة في صورها المتعددة ، وعلاقتها بسواها مـن الجمل الاخـرى غير حفية بهذا الابداع الفني الذي عرض له ابو العلاء ،

ويظهـر ان الذي دفع البلاغيين والنقاد جميعا الى الاعراض عـن ذلك الصنيـع عند ابي العلاء انهم كانوا يقدرون ان ذلك اقرب الـى الفلسفـة والتفلسف ، وكأن الفلسفـة عندهم لا يصح ان تكون مـن بيـن المنابع التي تمـد الادب بروافد جديد ةومن هنا يقررون صراحة ان هؤلاء الشعراء فلاسفـة حكمـاء وان الشاعر هو البحتري ،

وقد ظنوا ان جمـال الديباجة ، ودقة العرض وروعة المنطـق . وسطوة القول لا تجتمع والفلسفة ولا يأتلفان معا في انتاج ادبي متميز من اجل ذلك كله انشأ الفن القولي او البلاغة العربية تتجه الى الصورة اللغوية وعلاقتها بالفكرة . ويمثل هذا الاتجاه ـ في صدر هذه الفترة عبد القاهر الجرجاني في كتابيه اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز .

وقد استطاع عبد القاهر في كتابه الدلائل ان يضع ايدينا على نظرية متكاملة في النظم لم يتح لاحد من قبله ان يتناولها بهذه الصورة الواضحة ، وبهذه الافاضة المفصلة ،

ويرى الدكتور شوقي صنيف ان هذه المحاولة قد سبقه اليها القاضي عبد الجبار في كتابه المغني وبخاصة في الجزء الذي افرده للحديث عن اعجاز القرآن والحق ان ما عرض له عبد الجبار لا يصل في دقته واديته الى المستوى الذي وصل اليه عبد القاهر فان النزعة الكلامية والاسلوب الجدلي كانا يسيطران على القاضي عبد الجبار سيطرة يذهب معها الاحساس باللغة وطاقاتها في التعبير والبيان ، الى جانب انه عرض للاعجاز على انه جزء من العقيدة الدينية ، اما عبد القاهر فانه عرض له على انه قضية من قضايا الفن واصل من اصوله الرفيعة التي يسمو بها على بقية الفنون مهما تعددت الوانها وتباينت ظلالها ،

والجديد عن عبد القاهر انه نظر الى اللغة نظرة احاطة فلم يقصر نشاطه على جانب من جوانبها دون الاخر وانما نظر اليها على انها كل لا يمكن فصل جزء منه عن الاخر .

وقدر الرجل في حديثه عامل التطور في حياة اللغة موصولة بحياة المجتمع العربي ، واخص ما يعرض له من ظواهر هذا التطور رأيه في الفصاحة وانها لا ترتبط باللفظ ولا تدور في مجال الصناعة اللفظية وانما ترتبط بالمعنى والنظم معا فقد يكون اللفظ غير العربي فصيحا في نظم الكلام ومؤديا للغرض على احسن وجه وابينه ، وقد يكون لجرس حروفه وائتلاف نغمه وترادف رنينه اثر اقوى من اللفظ العربي الاصيل ،

ويكاد عبد القاهر كما قلت يعرض اصول نظرية النظم عرضا مفصلا وان لم يلتزم الترتيب المنطقي فيعرض لجزئيات هذه النظرية في تساوق ونظام ثم ينتهي الى رسم الاطار العام لها .

ويظهر من صنيعه انه كان يقدر ان تلك هي المحاولة الاولى وان الزمن كفيل بأن يهيء لها من الافراد الخالفين من يكمل القول فيها على اساس من ذلك الترتيب الذي اشرنا اليه جملة .

على اية حال : اللغة عند عبد القاهر ــ هي ذلك البيان الذي يمتاز به الانسان عن غيره من سائر المخلوقات كما في قوله تعالى الرحمن خلق الانسان علمه البيان ، على عكس ما فهم الدكتور شوقي صنيف من هذه الاية وهو ان المراد بها البيان في صورته الاخيرة بما هو تفنن في التعبير وبراعة في النظم ، وقدرة على الخلق الادبي المتميز ،

وقد وصل عبد القاهر بين الاعجاز وبين النظم مؤكدا انه لا يتم في الكلمة المفردة وانما في ذلك في المجموع الذي يسمى بالنظم اذ يقول :

ان الاعجاز ينبغي ان يكون وصفا قد تجدد بالقرآن وامرا لم يوجد في غيره ولم يعرف قبل نزوله واذا كان ذلك فقد وجب ان يعلم انه لا يجوز ان يكون في الكلمة المفردة لانتقدير كونه فيها يؤدي الى المحال وهو ان تكون الالفاظ المفردة التي هي اوضاع اللغة قد جددت في حذاقة حروفها واصواتها اوصاف لم تكن لتكون تلك الاوصاف فيها قبل نزول القرآن ــ

فالرجل اذن يرى ان الاعجاز ــ في الاسلوب والنظم بشقيه اللفظة والفكرة ــ بعد التركيب ، وهنا يؤكد عبد القاهر ان النظم في عامة امره وخاصه يرتكز على دعائم ثلاث :

١) اللفظة المفردة التي هي اللبنة الاولى في بناء العمل الفني القولي .
٢) المعنى النحوي الذي تدل عليه هذه الالفاظ بتضامها ، وتساوقها
٣) المعنى الثاني او معنى المعنى وبين هذه الدعائم الثلاث ــ يكون عمل النحو بما هو ضابط لجميع انواع العلاقات بين هذه الالفاظ وهو المبين عن الفكرة التي يراد اداؤها على هذه الصورة ... وعبد القاهر يرى ان البراعة التي تحقق لصاحب العمل الادبي الامتياز عن سواه من صناع الادب انما تكون في المعاني الثانية .

وقد استطاع ان يكشف عن القوالب التي تصاغ فيها هذه المعاني ، بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز .. وقد افرد كتابه اسرار البلاغة لتفصيل القول في هذه القوالب ، واذا كان عبد القاهر قد انفرد من بين سائر البلاغيين بجمع الاشتات المتفرقة لنظرية النظم مبتدئة بالجاحظ ومنتهية اليه فانه قد استطاع ايضا ان يكشف عن الفنية الدقيقة في بناء الاستعارة ومن رأيه ان الاستعارات قد لا يمكن ان تحل الى التشبيه وانما ينبغي ان يحسها الاديب او الناقد وان يرى ما فيها من الحس والدقة والاصالة .

وقد عرض لبعض الشواهد التي لا يمكن حلها منها قول زهير بن ابي سلمى في قوله ، وعرى افراس الصبا ورواحله ومنها ايضا قول لبيد اذ اصبحت بيد الشمال زمامها

ولا ريب في ان تقرير عبدالقاهر لهذا الملحظ كان له اثره فيما بعد ، في حركات التجديد البلاغية في العصر الحديث والتي نعرض لها بعد قليل ،

كما ان عبد القاهر قد لفت في كتابه هذا الى عملية النقل واقصد بها نقل اللفظ من معنى الى اخر حسبما يقتضيه العمل الادبي وتعين عليه القدرة الفنية التي يستمتع بها صاحب ذاك العمل .

ـ ومن هذه العملية ـ يدخل الخطأ على الاديب فقد لا تسعفه الرؤية البصيرة فينقل وهو لا يدري انه جنى على عمله جناية اسفت به ومن هنا نرى عبد القاهر يصنع الاساس للنقل فيقول ما خلاصته ان النقل على جزئين ، نقل يراعي فيه التشبيه ، ونقل لا يراعي فيه ذاك التشبيه والاول تقوم عليه الاستعارة والثاني ينهض عليه المجاز فاذا قلت مثلا رأيت اسدا يصول ويجول في ميدان الحرب فان النقل هنا يقوم على التشبيه ذلك اني نقلت الاسد وهو اللفظ الدال على خصائص يتميز بها ذلك الضرب من الحيوان الى اطلاقه على الفارس او الرجل الشجاع الذي انفرد بخصائص تميزه عن غيره من افراد النوع .

وعملية النقل في الاستعارة انما تعتمد على حسن اختيار الاديب ودقة ذوقه ، ونفاذ ادراكه للطبائع والخصائص التي تمتاز بها الأشياء المحسوسة او المدركة بطريق العقل ،

اما النقل في اللغة ـ فانه عملية تاريخية ترتبط اساسا بالاستعمال اللغوي ـ عند اصحاب الانتاج الادبي المتميز وهي خاضعة اساسا للرقي

العقلـي والذوقى الذي يصيبه المجتمع المستعمل لهذه اللفظة والمتصرف فيـها ، والقاضي على هذا التصرف كما اشرت مـن قبل ،

ومما هو بسبيـل مـن عمليـة النقل في اللغة او في الالفاظ فكرة الغرابة وهو اصطلاح طالما جرى على السنة اصحاب النقد وهم لا يكادون يتفقـون فيـه على معنى واحد فتارة يطلقونها بمعنى الوحشـي مـن الالفاظ غيـر المأنوس وتارة يريدون بها ما كان بعيد الدلالة عن المستوى العام الذي يقاس به الانتاج الادبي •

وعلى اية حال فالحكم بالغرابة على بعض الالفاظ وبالالف والايناس على بعضها الاخـر ، انما يرتبط بالقاموس اللغوي الذي يعيش في كـل عصر ذلك لان لكل عصر قاموسا يخصه ، ويعيش على السنة اهله ، ومـا كان خارجا عـن نطاق هذا القاموس اضحى غريبا غير مألوف ولا منقاد لاهلـه ،

عود الى النظم والاعجاز :

أشرت مـن قبل الى أن قضية الاعجاز ترتبط دائما بكتاب وأن هذا الكتاب لقي مـن أهله والدائنين بـه تقديسامل‌ك عليهـم منافـذ الاحساس فلا يكادون يدينون باعجاز كتاب آخر له مثل هذه المكانة في قومه الذيـن نزل عليـهم وظهـر بينهم رسول أو داعيـة يؤكد اعجازه وتفوقه بحيـث لا تتطاول اليـه طاقاتهم مهمـا بلغت مـن القوةوالتمكن ولا سبيل الى بيان !سباب هذا الاعجاز الا بدراسات واسعة تتناول كل ما يتعلـق بهذا الكتاب مـن ناحيـة الفكرة وعرضها ، وألفاظه ونظمها ،

وما انفرد به من أساليب لم يألفها أهله وان كانوا أهل هذه اللغة التي نزل بها ولهم وحدهم حق التصرف فيها بما يجعلها طيعة لهم ، سهلة عليهم •

وقد عرفت أن عبد القاهر يكاد يحدد الاعجاز في النظم •

وقد عرفت أن النظم عند عبد القاهر لا يكاد يقف عند حد رصف الكلمات ورعاية جرسها وائتلافه وانما يعالج ــ الى هذا كله ــ قضية الفكر والمعاني التي تدور فيه وكيف يستطيع الأديب البارع أن يؤلف بين هذه المعاني على نحو فريد لم يسبق اليه ان كان من أهل الاصالة والابتكار ، أو ان يؤلف بين الموروث منها بحيث يؤدي هذا التأليف الى توليد صورة فنية جديدة لا تلمح فيها الا آثار مادة موروثة •

واستمع الى عبد القاهر يكشف لك عن رأيه في قضية الاعجاز اذ يقول :

وههنا أمر عجيب وهو أنه معلوم لكل من نظر أن الألفاظ من حيث هي ألفاظ وكلم ونطق لسان لا تختص بواحد دون آخر وأنها انما تختص اذا توخى فيها النظم واذا كان كذلك كان من رفع النظم من البين وجعل الاعجاز بجملته في سهولة الحروف وجريانها جاعلا له فيما لا يصح اضافته الى الله عز وجل •

وهكذا كان النظم عند عبد القاهر يكاد ينحصر في هذه الخطى :

١ ــ فكرة يراد اداؤها

٢ ــ ألفاظ تختار على قدود هذه المعاني

٣ ــ ترتيب الألفاظ على ما تقتضيه صناعة النحو

٤ ــ جعل الترتيب ملائما لترتيب المعاني في النفس

٥ ــ اختيار الألفاظ على أساس من ملاءمة الجرس للنكرة

٦ ــ استنباط المعاني الثانية من واقع النظم فاذا ما حاولنا أن نقيم نظرية عبد القاهر في النظم وأن تتخذها أساسا قيما محاوله من تحليل الأعمال الأدبية والكشف عن الجديد فيها اوالموروث الذي صاغته صياغة جديدة .

احتجبنا الى جملة أمور لا بد أن نضعها في الاعتبار وأن نحدد مكانها في سير العمل النقدي الذي نحاوله

وأول هذه الأمور وأحفلها بالعناية : الفكرة المعروضة ومدى ما بينها وبين صاحبها من تجاوب أو تنافر ولا سبيل الى الحكم على هذه الاشياء الا بالتعمق في شخصية صاحب العمل الأدبي لنعرف الدوافع والحوافز ، والأهداف ، والغايات ، وما بينهما من الوسائل التي اتخذها الأديب للكشف عن هذا كله .

ثم نظر بعد هذا كله الى الفكرة من ناحية تركيبها في ذهن صاحبها ، وهل كانت فكرة مدروسة أولاها من عنايته وتقديره ما تستحقه أو أنها مجرد دفعة عاطفية محرومة ، أو مهتورة ، أو منهومة

وبهذا نستطيع أن نقيم كثيرا من شعر الغزل الذي نكتفي بوصفه

بأنــه شعر خليــع أو فاجر أو .. أو ... دون أن تتابع البحث عمــا وراء .

وخذ مثلا لذلك شعر بشار في الغزل وهل كان يصدر فيه عن تقديره لفكرة الجمال ، وأثرها في المجتمع ، تحفزه الى العمل ، وتشد مــن عزمه، وتفتح له أبوابا واسعة مــن التفاؤل المؤدي الى تأميــن سلامة الحياة ، وعمــارتهــا

وهنــا نلحظ أمرا شديد الخطر في الدراسات الادبية وهو أن بشارا أو اضرابه مــن أولئك الشعراء لم تكــن لديهم فكرة واضحة عن الجمال الا ما ارتسم في أذهانهم مــن أنه وسيــلة ارضاء الرغبة واشباع الشهوة فحسب ، أما ما وراء ذلك مــن أنه ميزان توزن به الشخصيــة السوية ، يصدر صاحبه فيه عن دراسة واعية وادراك نافذ ، وتقدير قوي لوظيفة الجمــال في هداية الحياة ، وسلامتها .

كذلك نستطيــع أن نقيم شعر الهجاء بعد ان خلا مــن تلــك المنافرات القبيلية واتجه الى الشخصيةونلحظ ذلك واضحا عند الجاحظ في البخلاء ، وعند ابن الرومي في شعره

فان كليهمــا يدرس شخصية المهجو دراسة أصيلة واعية متخذا ما يصدر عنها مــن اعمــال دلائله في استنباط المعاني النفسيــة التي تدور في وعيــه ، وهكذا نرى أن نظرية النظم ليست مــن الهوان بحيــث يستطيع القــول فيها مــن لم يحسن فهمها والحق أن فكرة النظــم تقوم على مبدأين أولهما التركيب وثانيهما التحليل .

فأما التركيب فيكاد يتحدد في بناء العمل الفني وأما التحليل فيختص بالتفسير الكاشف عن كل أداة أو وسيلة من وسائل هذا التركيب •

وبعد فتلك هي الملامح العامة للدراسة البلاغية ، وقد كشفت لك عما انتهى اليه الأمر في درسها بتلخيص بعض فنونها ولا يقف الأمر عند حدود هذه المصطلحات التي تتقاذف وعيك وادراكك فلا تكاد تستقر في أية زاوية من زواياه وانما البحث البلاغي اصول وقواعد

تعتمد على دراسة اللغة ووظيفتها ثم تطورها الدلالي ثم النظم بهذا المعنى الذي كشف عنه عبد القاهر ،

وقد تبين لك مما ذكرناه في حديثنا عن اللغة وتطورها الدلالي أن التصور اللغوي عند العرب لم يكن يسير في طريق واحد وانما اختلف باختلاف المستعملين لهذه اللغة ، وقد قارنا بين بعض هذه التصورات بما يكشف لك عن وجوه المشابهة بينها •

فمثلا نرى الأصوليين يقولون بالمنطوق والمفهوم ونرى البلاغيين يقولون بهما ثم يكلمون القول فيهما بحديثهم عن الكناية •

ونستطيع بعد هذا كله أن يفرق بين المجاز والكناية بأن الأول يعتمد على النقل أما الكناية فلا نقل فيها وانما هي تعبير أو ألفاظ لها لوازم يمكن أن يريدها المتكلم تحقيقا منه لقضية الوصف بمضمونها ،

وهكذا نرى ان البحث البلاغي في حملة أمر لم يصبه الجمود الا نتيجة ما جمد عليه اصحابه من تكرار لمصطلحات لم يحدد مكانها من سلسلة التطور اللغوي •

فكرة الذوق وعملها في تقييم الاثر البلاغي :

يقرر عبد القاهر ان الاحساس بالفكرة وعمقها ، وطريقة النظم في ادائها هو الاساس الذي يرتكز عليه تقييم العمل الادبي وأن الناقد والاديب مهما بذل من الجهد فانه لا يستطيع ابراز كل الأصول التي يعتمد عليها ذلك التقييم اذ يقول :

وليس الأمر في هذا كذلك فليس الداء بالهين فيه ولا هو بحيث اذا رمت العلاج منه وجدت الامكان فيه مع كل أحد مسعفا والسعي منجحا لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث له علما بها حتى يكون مهيأ لادراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه احساسا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض المزية على الجملة فيها ومن اذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شيء منها وشيء .

وعبد القاهر هنا ـ وفي غير ذلك الموضع من كتابه دلائل الاعجاز يؤكد أن فكرة الذوق القاضية على العمل الادبي لا تعتمد على دراسة مرتبطة بالنظم محددة في اطارات عقلية أو ذهنية يستطيع الدارس أن يضع يده عليها وأن يتخذها معايير أو مقاييس يقيس بها العمل الفني ، وانما الأمر في هذا كله بعد الدراسة والخبرة يعتمد على الذوق الرهيف ، والاحساس النافذ والادراك الواعي ولا سبيل الى تحصيل هذا الذوق الا بالتمرس بالأساليب ورواية الشعر وتفسيره ، والاحساس بوجوه الفروق بين صنيع الشعراء فيه ، حتى تتكون لدى

الناقد ملكـة يستطيع بها أن يمايز بين الجيد والرديء منه ، سواء في الفكرة أم في الصياغة .

وهنا يؤصل عبد القاهر أصلا وهو أن ادراك الجمال وأسراره يرتد الى أمور روحانية لا سبيل الى التعبير الدقيق عنها ، والى الكشف عن أسرارها ما دامت اللغة لا تملك من الوسائل المعينة على التعبير عنها طاقات كافية .

ومرد ذلك عنده الى أن المعاني الروحانية أمور تدرك ولا يعبر عنها

وربما كان ذلك لأن اللغة فيها من العجز ما فيها مما لا تطوع معه لهذا التعبير والتبيان .

وهنا يقارن بين طبيعة العلم ، وطبيعة الفن فيقول :

واذا كانت العلوم التي لها أصول معروفة وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس في العلم بها واتفقوا على أن البناء اذا أخطأ فيه المخطىء ثم أعجب برأيه لم يستطع رده عن هواه وصرفه عن الرأي الذي رآه الا بعد الجهد والا بعد أن يكون حصيفا عاقلا ثبتا اذا نبه انتبه واذا قيل له ان عليك بقية من النظر وقف وأصغى ..

فكيف بأن ترد الناس عن رأيهم في هذا الشأن ـ الفنون ولآداب ـ وأصلك الذي تردهم اليه وتعول في محاجتهم عليه استشهاد القرائح وسبر النفوس فليها وما يعرض فيها من الاريحية عندما تسمع وكان ذلك الذي يفتح لك سمعهم ويكشف الغطاء عن اعينهم ويصرف اليك أوجههم وهم لا يضعون أنفسهم موضع من يرى الرأي ويفتي ويقضى الا وعندهم أنهم ممن صفت قريحته وصح ذوقه وتمت أدواته .

فقد فرق عبد القاهر بين العلم والفن وأن العلم يعتمد على قواعد يمكن أن تتخذ معايير للحكم على الحقائق الواردة فيه أما الفن فان له ادواته ولكنها أدوات محدودة بحدود الصورة الفنية أما البحث عن روح هذه الصورة وبيان ما فيها من وجوه الابداع والجمال فلا يجتمع لهذه الادوات وانما تحتاج الى دربه خاصة وادراك بصير وقدرة خارقة على اجتياز الحدود والرسوم الى الوصول الى جوهر العمل الفني ،

وقد فصل القول في الذوق وأثره في العمل الفني ابن خلدون في مقدمته في الفصل الذي عقده للكلام عنه ،

وبعد فهذه أصول نظرية النظم عند عبد القاهر وقد اتخذت في العصر الحديث أساس التجديد في الدرس البلاغي عند كثير من العاصفين الخالفين •

وبهذا التناول الدقيق لنظرية النظم موصولة الاسباب باللغة من جهاتها المختلفة اعتبر عبد القاهر واضع علم البلاغة والمؤسس لها ويظهر ان هذا الاعتبار مرده فيما نعتقد الى ان عبد القاهر كان اول من وضع نظرية متكاملة في البلاغة اما من سواه من السابقين عليه فا تكن بحوثهم فيها غير جزئيات مشتتة لا يكاد تؤلف بينها نظام ولا تصل بين اجزائها وحدة بلغت من الدقة والاصالة ما بلغته عند عبد القاهر •

ولقد كان لعمله هذا اثره فيمن جاء بعده ممن تصدوا للدرس البلاغي في صورة محددة بينة نظامها التقسيم والتحديد ، وجماعها المنطق

في الترتيب والتبويب ، وخصائصها المناقشة العقلية لكثير مما وصل اليه عبد القاهر •

وكان على رأس هؤلاء جميعا السكاكي وقد ترك كتابه المعروف بالمفتاح تحدث فيه عن النحو والصرف باعتبارهما الاداتين اللتين يصح بهما الاسلوب ويضعان الموازين الدقيقة للحكم على هذه الصحة •

ثم قسم علوم البلاغة الى اقسامها الثلاثة ، المعاني والبيان والبديع ، وعرف المعاني بانه العلم الذي تعرف به مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، كما عرف البيان بانه العلم الذي يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلف والبديع بانه العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام •

وبذلك فصل الرجل بين بحوث هذه العلوم ، بهذه التعريفات وبدأ بالكلام عن المعاني لانه العلم الذي يرسى اصول التصرف في بناء الجملة العربية من مسند ومسند اليه وتقديم وتأخير ، وخبر وانشاء ، وقصر وفصل ووصل ، واطناب وايجاز ومساواة وكان عمل السكاكي في كتابه الاساس الذي نهضت عليه الكتب المتأخرة حتى هذا القرن الذي نعيش فيه •

ولا ضرورة عندنا في ان نستقصي الكلام في هذه الكتب وانما نكتفي بايرادها دون تحليل لعملها ، وكشف عن طبيعة صنيعها ، فانها لم تعد غير التفصيل تارة ، او الايجاز تارة اخرى ،

غير ان اهم هذه الكتب كان التلخيص ثم الايضاح وكلاهما للخطيب القزويني

(٧) ركود الحركة الادبيـــة واثرهما في تجميـــد الدرس البلاغي :

في هذه العصور السابع والثامـــن وما تلاهما كانت الحركة الادبية اخذت طريقها هي الاخـــرى الى الجمـــود ، فلا ابداع في صورة فنية ، ولا اختراع في معنى وانمـــا كانت الصناعة هي اساس الاختراع والابداع عندهم ، ، ولا شيء ارحب مجالا ــ في التصنيـــع ــ من البديع ومن هنا اسرف القوم في تشقيـــق الكلام فيه واختراع الصور المتعددة له حتى بلغ بها بعضهم الى ما فوق المائة كمـــا صنع ابـــن ابي الاصمع وابن حجه الحمـــوي .

ويظهـــر ان الحيـــاة المادية يومئذ كان يداخلها التصنيـــع وكثـــرة الوشي ، ومختلف الحلى فالمساجد يومئذ ــ وهي مظهـــر مـــن مظاهر هذا التصنيـــع كان التعقيـــد بدأ يأخذ طريقه الى ما يجللها مـــن انواع الوشى المختلفة ويبدو ان النقاد انشأوا هم الاخرون يشاركون في اختراع الاضرب المختلفة والانماط المتعددة لهذا الوشي في الفـــن القولي على نحو ما نجده في كتاب ابـــن ابي الاصبع وابـــن حجه ،

اما الدراسات البلاغيـــة الاخـــرى المعنيـــة بالجملة وبنائها فانها بدأت تنمـــو في بيئة الفقهـــاء المفسرين ويظهر ان المفسرين منذ اقـــدم العصور الاسلاميـــة كانوا يحاولون ان يستفيدوا مـــن الدرس البلاغي في كشف طاقات النص المختلفـــة كي يقدموا للفقهاء والمشرعين ملاحظ جديدة يمكـــن ان تتسع بها افاق العمل التشريعي عندهم ولقد كان مـــن اوائل الذيـــن نهضوا بهذا التطبيق في صورة خاليـــة مـــن الصنعة ابن

جرير الصيري في تفسيره جامع البيان ، فانا نجد الرجل في كثير من الايات التي تعرض الوانا من التشريع يحاول جهده ان يستفيد من هذه الدراسات متجها الى الجملة المعبرة وما قد يكون فيها من دلالات تعين المفسر وتسدد خطاه ، وتنير له السبيل الى فهم ادق وافق ارحب .

ويظهر ان عملية التطبيق من جانب المفسرين قد كان لها اثارها فيما نقدر في نمو علم الاصول واتساع مذاهب القول فيه حتى انا نرى رجلا كابن السبكي في اول كتابه عروس الافراح يؤكد هذا المعنى بل ويقرر صراحة ان علم الاصول بما انتهى اليه امره حتى عصره مجموع متكامل من دراسات متعددة اخصها علم المعاني ، عند البلاغيين والمنطق عند اصحابه المناطقة .

فلقد عاشت البلاغة تطبيقا لفروعها المختلفة عند المفسرين ومنهم من استغلها تأييدا لمذهبه ودعما لارائه كما صنع الزمخشري ومنهم من حاول ان يكشف عن ظواهرها المختلفة في النص القرآني وان كانت الالية في التطبيق بلغت عنده شأوا بعيدا كأبي حيان في البحر المحيط فيقول مثلا وفي الاية من البلاغة جناس مطابقة وتقديم وتأخير دون ان يشير الى اثار هذه الانواع في المعنى العام الذي تدل عليه الاية او في علاقتها بسالفتها او لاحقتها من الايات .

ولا شك ان التطبيق للبلاغة بهذه الصورة عند ابي حيان يدل على ان العمل البلاغي كان يمارس تطبيقا بهذه الصورة الجامدة كما كان يمارس فنا قوليا وزخرفا لافتا ــ في الانتاج الادبي بعامه ويظهر

ذلك واضحا في انتاج الشعراء في هذا العصر فقلما تسلم قصيدة من تكلف مثل هذه الانواع البديعيــة حتى تحول الانتاج الفني بعامة الى انواع من الزخرف المؤدي احيانا الى الاضطراب والخداع الفني .

هكذا انتهى الدرس البلاغي في هذه البيئات قائما علـــى التقسيم والتحديـد والتطبيـق الالي غيـر ان المجددين مـن الفقهاء في كـــل عصر حاولوا ان يستغلوا قواعد هذا العلم في توسيــع افـــاق النص والاستنباط منــه ومنهم مــن تصدى الى نقد كثير من جزئياته فمــن اولئك ابــن القيم فقد سمي المجاز (الطاغوث) وعرض لاخطار التوسع فيــه في كثير مــن الايات التي تتعرض لرسم العقيــدة وبيان حدودها وابعادها ، ولفت الى ان تطبيقه بهذه الصورة المترخصة بفتح ابوابـــا مــن الفتنــة على هذه العقيدة ، ولم يكــن ابــن القيم في هجومه على المجاز بهذا القدر سوى مقرر لمبدأ هام في القول بالتجوز ـ وهو الرجوع الى طريقة اللغة في هذا التجــوز موصولا بتدرج حياة اللغــة على السنة العارفيــن بها المدركيــن لنواميسها ، وظل الامر كذلك حتى ظهر ابــن الاثير في المثل السائر وكنا نأمل ان نجد عنده جديدا يمكــن ان يضاف الى ما ترك الاقدمون وبخاصة عبد القاهر برغم ما يدعيه في كتابه مـــن دعاوى جزئيــه مــن انه وصل الى هذا الملحظ او ذاك ولم يسبقه اليــه احد ، ولكننا لا نكاد نظفــر عنده بجديد سوى ما يسوقه من الرسائـــل التي كتبها والتي يعدها القمــة العاليــة للفــن القولي ، غغير ان صنيــع الرجل يحدد لنا مفهوم البلاغة عند الكتاب في الديوان ووسائل احتيــاز هذا الفــن لديهم ولذلك نراه يستهل كلامه بالحديث عــن البيان ومـــا

يلزم صناعة الادب مـن الات وهو يردها الى ثمانية انواع وهي العلـم بالنحـو واللغـة وامثال العرب • وما كتبه البلاغيون من قبل والاحكام السلطانيـة وحفظ القران والتدريب على الاقتباس ، وحفظ الحديث والتمريـن على استخدامه في تضاعيف الكلام والعروصة والقوافي •

(٨) البلاغة في العصر الحديث وموقف النقاد منها لا نستطيع ان تتبيـن موقف هذا العصر مـن التراث البلاغي ما لم نحدد معالم هذا العصـر ومظاهـر الصراع الثقافي الذي عاش فيه والذي ادى الى انقسام المجتمع الى معسكريـن احدهمـا ينصر القديـم ويدافع عنه ويحاول ان يـرد كل جديد اليه والثاني يحاول ان يلفت الناس الى الجديد فيعنوا بـه ويحرصوا عليـه ويأخذوا باسبابه حتى يتطور لديهم الخلق الادبي تطورا اخـر • يسايـر ذاك التقدم الذي احرزته الانسانيـة في مختلف الفنون وشتـى المعارف •••

والواقع ان العصر الحديث في تاريخ الادب والنقد يمثل هزة اخرى في حياة المجتمـع العربي نقلته مـن جمـود الى حركة ومن تقليـد الى ابداع ، ومـن محافظة الى تجدد متحرر ،

وهذه الفترة شبيهـة الاثر ببداية العصر العباسي وما كان لها مـن اثر في تحـول سريع في حيـاة ذاك المجتمع فاذا كانت حركة الترجمة هنـالك نقلت المجتمع نقلة اخرى في الفـن وفي الفلسفـة وفهم التاريخ وتفسيـر احداثه ، بل وفي التشريع نفسه فدفعت باصحابه الى ان يكونوا اوسع افقا واعمـق نظرا وادق ادراكا لطبيعة العوامل والدوافع المسيـرة

للحياة الاسلامية بما اصابت من تغير في جميع جوانبها اذا كان كل اولئك في العصر العباسي الاول فقد كان مثله في العصر الحديث •

فقد كان لاستعمار اوروبا للشرق الاوسط بعد ان انتهت الخلافة العثمانية اثره في ان وصل المجتمع العربي بثقافات جديدة وحضارات اخرى ، بالرغم من ان هذا الاستعمار كانت له مساوىء في اضعاف الكيان السياسي واستغلال طاقات هذه الشعوب المادية لخيره وصالحه ، وما يزال يحوك من المؤتمرات ما لا يسهو عنه احد •

وقد صاحب ذلك كله التفكير في انشاء اول جامعة في الشرق وهي الجامعة المصرية القديمة ، تعنى بتراثنا العربي وتحي ما اندثر من اثاره ، وتدفع بالقوم الى الثقة به والايمان بما ادى للانسانية مع نفع على اختلاف العصور ، ثم هي الى ذلك تحاول ان تنظم الانتفاع بالحضارة الاوروبية التي وفدت مع الاستعمار ، واخذ بها بعض القوم يومئذ •

ولقد كان من اثر انشاء هذه الجامعة ـ ان فكرة الاكاديمية في الدراسة والبحث انشأت تأخذ طريقها الى الدارسين ولا شك ان اهم ما تعتمد عليه هذه الاكاديمية ـ « المنهجية»

والمنهجية التاريخية تعتمد على امرين اولهما تحقيق النصوص تحقيقا علميا محررا ثم محاولة تفسير التاريخ تفسيرا دقيقا من خلال هذه النصوص بعد ترتيبها ترتيبا تاريخا يدل على مدى التطور الذي الم بالحياة العربية وكان المستشرقون الذين وفدوا الى مصر

يخططون الحياة الجامعية تخطيطا يساير التطور الاوروبي وكان اول من لفت الى هذه المنهجية وطبقها أمثال سانت هيلانه جويدي وغيرهما ، ثم جاء على اثرهما طه حسين . فاتخذ التطور اساسا لدراسة الظواهر الفنية والعلمية ووضع في ذلك كتابين اولهما في الشعر الجاهلي والثاني في الادب الجاهلي وقد احدث اولهما ضجة كبيرة في الاوساط العليمة بين متعصب له ومتعصب عليه .

والواقع ان الذي مهد تماما لظهور مثل هذه النقلة الاستاذ الامام محمد عبده فقد احس الرجل ان الجمود يكاد يخنق المجتمع العربي فلا حركة فيه تدل على حياته ، وتؤذن بخير يرتقب منه ولا نشاط له في التبصير بتاريخه ، وبعث الصالح من اثاره وتجديد النظر فيه ، ويظهر ان الرجل قدر فيما قدر ان اثار الجمود لا تظهر الا من خلال معنويات الشعوب واخصها ما يتصل بفنها ، واحب الفنون عند العرب يومئذ وآثرها لديهم الفن القولي — وقد رأيت فيما سبق — ان البلاغة كانت تطبق تطبيقا اليا بهذه المصطلحات التي شاعت على السنة اصحابها يومئذ ، وان النظرة الواعية والرؤية الدقيقة لجوهر النص لم تكن قائمة بين النقاد ومن هنا احس محمد عبده ان لا قيام لهذا المجتمع الا بترقية ذوقه ، وتصقية احساسه ، فنشط يومئذ الى احياء الدرس البلاغي بعيدا عن السكاكي واضرابه ممن حولوا هذا الدرس الى رياضة عقلية واتجه الى عبد القاهر في كتابه دلائل الاعجاز فتصدى لدرسه في الازهر بعد ان يفرغ من عمله الرسمي وهو الافتاء وتدافع الناس يومئذ الى الاستماع اليه والاستفادة مما يبديه من ملاحظات على النص ،

وكان من اخص تلاميذه واقربهم اليه محمد رشيد رضا فتولى نشر هذا الكتاب واثبت ما كتبه الشيخ بخطه على الكتاب وما وعاه في اثناء الاستماع اليه وكان ذلك اول تجديد في حياة الدرس البلاغي في العصر الحديث ، وقد توالى فيما بعد بعث الاثار الصالحة ــ في الفن القولي بعيدة عن ذلك الجفاف الذي آل اليه امره حتى انا نجد تلميذا اخر له يأخذ مكانه في الازهر فيعني ببيان ما عند عبد القاهر ــ من ملاحظ في النظم وهو الاستاذ علي عبد الرزاق ولهذا الرجل تاريخ يمكن ان نستدل منه على اشياء فمن معالم تاريخه انه اتجه الى الدراسة في الازهر وقد كان في وسعه ان يدرس في اوروبا لما امتازت به اسرته يومئذ من ثراء وجاه ، فلما تخرج في الازهر اشتغل بالقضاء فاكسبته هذه الوظيفة تجارب متعددة أرهفت حسه ووسعت افقه واصدقته الرؤية لكل ما يحيط به ويبدو ان صلة هذه الاسرة بمحمد عبده كانت وثيقة فانقطع الرجل اليه يستمع له ويأخذ عنه وظهرت اثار ذلك فيما حاوله بعد من عرض لنظرية النظم عند عبد القاهر فيما كتبه من كتاب اسماه « الامالي » وقد استطاع على عبد الرزاق ان يضع ايدينا على اصول هذه النظرية من واقع النصوص التي نقلها من مجموع كتب عبد القاهر ، فلم يكن التجديد يومئذ غير احياء لتراث عربي خلا من عوامل الجمود واسبابه ، وقد حاول بعد طه حسين في الجامعة ان يدرس هذا الكتاب على انه نص يمكن ان يستفاد به في ترقية الاسلوب وضبط اللسان ، ثم في ترقية الذوق الادبي من جهة منهج الرجل في تحليل النص تحليلا يعتمد على البصر باللغة وادراك دقائقها .

في الوقت الذي ظهرت اثار الاتصال بالثقافات الاجنبية بدأت تنشط حركات ناقدة تتناول جانبين :

١) الجانب الاول الخاص بالقصيدة العربية ونظامها ، والثورة على عمود الشعور ، ثم وحدة القصيدة ، والوزن الشعري بهذه البحور الستة عشر ، وقد تزعم الدعوة الى التجديد في هذه الناحية ،ثلاثة هم شكري والعقاد والمازني ، وكل من اولئك كان يقول الشعر ويحاول ان يضع النماذج التي تتوافر فيها الاصول التي يدعو اليها وقد اتخذ موضوع التطبيق لهذا النقد الشاعر احمد شوقي اذ كان يومئذ يمثل القمة التي انتهى اليها الشعر التقليدي في وزنه وقافيته وموضوعاته ، وكان العقاد يومئذ اشد النقاد عنقا واقساهم حكما ، وابعدهم عن صدق النية ، فيما يكتب وقد ظهرت اثاره واضحة في كتابه شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ثم حاول طه حسين ان يكون ذلك الصراع حول شعر شوقي او بعبارة ادق حول الشعر التقليدي بجميع خصائصه ومقوماته في الجامعة فحاضر فيها عن الشعر في العصر الحديث وبخاصة عند شوقي وحافظ وكتب في ذلك كتابا مستقلا ، اما الجانب الثاني فيتمثل في وحدة العمل الادبي ويظهر ان فكرة الوحدة التي ينبغي ان تكون صلب العمل الفني هي التي اوحت بنقد البلاغة العربية ودفعت كثيرا من النقاد الى مهاجمتها فنرى مثلا جبر ضومط يحاول ان يضع في كتابه اسس التجديد في هذا الميدان ، ثم سلامة موسى يدعو الى محاولة اخرى بينها وبين دعوى جبر ضومط وشائج قوية ، وتكاد تتبلور هذه الاتجاهات فيما كتب جبران خليل وجبران ولكن اسس النقد عند

هؤلاء الناقدين لم تضح تماما ولم تتحدد في صورة بينة الملامح سوى انهم يدعون الى التطور ويؤمنون به ، وان البلاغة يجب ان تعيش في هذا التطور وتتأثر به حجتهم في ذلك ان الفنون الادبية كلها قد تطورت ، وان الجمود على فن منها انكار لواقع حياة ، او تخلف عن ملاحقة التطور وقد كتب الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري جملة مقالات عن تطوير البلاغة العربية وكان اعدل هؤلاء الدعاة الى التطوير واقربهم الى الصواب منهجا وهي نفس الدعوى التي جهر بها الاستاذ امين الخولي في الجامعة اذ كان يلقي محاضرات عن علم الجمال ومن خلال هذه المحاضرات يدعو الى تجديد الدرس البلاغي •

وقد ترك الرجل في هذا التجديد واسبابه وصوره كتابا مستقلا اسماه فن القول وكان اول قضية صدر بها محاولاته للتجديد هي : « ان اولى خطوات التجديد قتل القديم بحثا » والقصد عنده من هذه القضية تقدير ان دعاة هذا التجديد يجهلون كثيرا مما كتب القدماء ومن هنا عرض الرجل اولا لارهاصات التجديد عند القدماء فكتب جملة مقالات عن الصلة بين البلاغة وعلم النفس ، والصلة بين البلاغة والفلسفة ،

وفي هذه المقالات عرض للخيال والتخيل وهو ما يتحدث عنه البلاغيون في باب الفصل والوصول حين يعرضون لفكرة الجامع من وهمي وخيالي وعقلي وان التفريق بين هذه الامور الثلاثة يحتاج الى دراسة نفسية وخبرة دقيقة باحوال النفس البشرية ومدى استعدادها للرقي بالفنون المختلفة واستجابتها لها ،

ومن هنا اكد الرجل ان دراسة البلاغة ينبغي ان تنهض على اسس

نفسية ذلك ان المستقبل للادب عند قراءة الادب او ممارسته فننا يشارك في انتاجه انما يتهيأ نفسيا سواء اكان مستقبلا ام منتجا ،والنقد الذي مارسه البلاغيون احسوا فيه هذا المعنى احساسا واضحا وان لم يبلوروه في كتاباتهم لان الدراسات النفسية يومئذ لم يكن قد بلغت من الرقي والتعقد ما بلغته في هذه الايام بعد ان اتسعت المعرفة بالنفس وزادت الخبرة بها وانشئت مختبرات ومعامل لهذه الدراسة وللقدماء في ذلك ملاحظات دقيقة تدل على اصل هذا الاتجاه في الدرس البلاغي وقد عرض لكثير من هذه الملاحظات الجاحظ في البيان واتبيين وعلى اساس من هذه اللفتات عند القدماء اقام الرجل منهجه في التجديد •

فلا فرق عنده بين الفصاحة والبلاغة بل هما يؤديان وظيفة واحدة قوامها اداء الفكرة في صورة متفننة ثم انتقل الى تعاريف القدماء لعلوم البلاغة الثلاثة •

فقال ان القدماء يعرفون علم المعاني بانه العلم الذي تعرف به مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته وان الحال هو الامر الداعي للمتكلم الى ايراد كلامه على نحو خاص وان المطابقة ينبغي ان تتم على اساس من رعاية هذه الحال ثم عرض لكلامه عن اضرب الخبر ملائمة لحال المستقبل للكلام من جاهل او شاك او منكر مع تقديرهم لدرجات الافكار وما يقتضي من توكيد للجملة ،

وهذه كلها دراسات نفسية تحتاج الى خبرة دقيقة بحياة النفس البشرية ودرجات هذه الحياة الاجتماعية والثقافية ، وان التغاير في

تركيب الجملة من تقديم وتأخير يتبع هذه الدرجات ويعيش في جو مستشف لها ومدرك لطبيعتها ،

وان محاولة حصر هذه الدرجات من جانب البلاغيين القدماء فيما اوردوه انما يقتصر على عصرهم وقد تجددت الحياة ، وتشكلت في صور متعددة وتجدد الحياة وتشكلها يغير تماما من طبائع الناس ويعدل في أمزجتهم ويترتب على ذلك ان يتعدل العمل الفني وفق هذا التغيير حتى يجد من ينفعل به ، ويستجيب له ، ويتأثر بما يدعو اليه ... ثم انتقل الى القصر وهو تخصيص امر بأمر بأداه لفرص ومن ادواته ما يفيد القصر باصل وضع اللغة ومنه ما يفيده بطريقة الفحوى وهو تقديم ما حقه التأخير كتقديم المفعول على الفعل او الجار عن المجرور او الظرف ومثلوا له بقوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين ، وقد اشار الرجل الى ان باب القصر لا يدخل اطلاقا في اطار العمل البلاغي لانه يرتبط اصلا باصل تأدية الفكرة دون اختيار من المعبر او صاحب العمل الفني او الادبي فاذا قلت مثلا ما محمد الا حاضر اختلف المعنى عند قولنا ما حاضر الا محمد ففي المثال الاول قصرنا الموصوف على الصفة وهو قصر اضافي لاستحالة ان يقصر محمد على الحضور دون غيره من الصفات التي تعرض للكائن الحي اما المثال الثاني فان فيه قصر الصفة على الموصوف .

وقد زاد الاصوليون على اسلوب القصر بطريقة الفحوى اساليب اخرى وصلوا اليها عن طريقة دراستهم للنص القرآني منها تعريف الطرفين مثل محمد الكريم وذلك الكتاب ومنها الايجاز في مقام

الاطناب ، كما انهم فرقوا بين التخصيص والحصر بالنظر الى المفهوم وقد ترك ابن السبكي في ذلك رسالة مفردة اشار اليها السيوطي في الاتقان ونقل منها بعض الفقرات ،

ويرى الاستاذ الخولي ان هذا الباب كله يضاف الى النحو لانه به الصق على ان النحوين انفسهم يستعينون به في ضبط وجوب التقديم او التأخير بين المفعولات في قولهم ما ضرب محمد الا زيدا وحين عرض لباب الفصل والوصل وهو اهم ابواب علم المعاني ، رأى ان الاستغناء عنه ممكن بأن يعود الكتاب الى نظام الفصل بين الجمل بعلامات الترقيم ،

والواقع ان الاستاذ الخولي في دعوته الى الغاء هذا الباب والاجتزاء عنه بعلامات الترقيم انكر تماما امرا ذا خطر ـ في الخلق الادبي ـ ثم في عملية الفهم الذي يواجه قارىء الادب ذلك لان الفصل والوصل بهذا الاسلوب الذي عرض له القدماء يعيننا على تمثل اشياء لا معدى من تمثلها وهي :

١ ـ طبيعة كل جملة ووظيفتها في العمل الادبي
٢ ـ مدى احساس منتج الادب بهذه الاشياء
٣ ـ من خلالها يستطيع ان ندرك العوامل التي اثرت في حياة التركيب الادبي •

وقد نقلنا من قبل ما قاله بشار حين طلب اليه ان يزيد (الواو) في قصيدته المشهورة ويكاد الاستاذ الخولي يؤمن ان الفن القولي

ينحصر في علم البيان وان كان يدعو الى اقامة النظر في ابوابه وبحوثه على اسس اخرى غير تلك التي استقرأها القدماء ـ

وهو يرى ان المجاز العقلي ينبغي انيخلص من التأثر بالدين في تقرير جزئياته والحكم عليها فلا يصح ان يقال مثلا في : انبت المطر الزرع ان ذالك مجاز عند الدينيين لان المنبت هو الله في الحقيقة وانما اسند الانبات الى المطر لان ذلك ظاهر مرأى العين وليس مجازا عند الطبيعين ، كما انه يرى ان فكرة التشبيه وبناء الاستعارة على حذف احد طرفي التشبيه يحول العمل الفني الى الية تحول بين المنتج وبين الاحساس بالفكرة ، او الصدق الفنني في التعبير ، ويرى في المجاز انه قائم على الافاضة فاذا قلت مثلا : امضي ليلته ساهرة فمعنى ذلك ان هذا المريض كأنه افاض على الليل ما يحسه من آلام السهر حتى كان الليل شاركه فيه فعاش مثل هذه التجربة القاسية التي يعيشها المرء في هذه الليلة ، كما يرى ان الاستعارة الاساس فيها التجسيم وكأن المستعار له بلغ من القوه او الضعف بحيث استحالت حقيقته الى كائن اخر اما البديع فانه يرى انه نوع من الخداع الفني في اغلب مظاهره ، والعمل الفني ينبغي ان يخلو من كل انواع هذا الخداع والاجانب أقوم اصل من اصوله وهو الصدق الفني في التعبير بحيث يؤدي الى قارئه او سامعه الاحاسيس والانفعالات التي يعيش فيها صاحبه بعيدا عن التزاويق والتلاوين وهكذا نرى ان اساس دعوة الاستاذ الخولي الى التجديد يعتمد على ثلاثة اصول :

١ ـ قتل القديم بحثا حتى يستفاد مما وصل اليه اصحابه مما ينشط

هذا التجديد وينفخ فيه ، ويجعله موصول الاسباب به ،

٢ ـ فكرة الاختيار والمفاضلة بيـن الاساليب ، وهي اساس ارتياد افاق جديدة وابداع متميز في العمل الفني اما ما لا اختيار فيه مما يتصل اساسا بحتميـة التركيب اللغوي فانه ينبغي ان يضاف الى النحو فيصبح بابا مـن ابوابـه •

٣ ـ الوصل بين الظواهر الفنية واحساس الاديب بها ، ومدى صدقه في عملية الوصل هذه وما كاد الاستاذ الخولي يجهر بهذه الدعوة الـى التجديد ويحاضر بها في الجامعة ، ويبسطها في محاضرات عامة حتى انبرى له الاستاذ احمـد حسـن الزيات في مجمـوعة مقالات كان ينشرها في مجلـة الرسالة وقـد اتخـذ منهـا جانب الهجوم فتعرض لامور بعيدة عـن النقـد الموضوعي • وبذلـك حـول الدرس البلاغـي الـى مناظرات كلاميـة على نحو ما كان يصنع المتكلمون في مناظراتهم •

كان ذلك مدرج حياة البلاغة العربية في العصور المختلفة وبقي ان نتحدث عن

(٨) مظاهر تطور العمل البلاغي :

تحدثنـا في الفصول السابقة عـن نشأة البيان العربي وتطوره في البيئة الاسلاميـة وعرضنـا الى المؤثرات والعوامل التي وجهته وانتهينا هنـالك الى ان هذا البيـان قد انتهى الى نظرية النظم التي حدد معالمها عبد القاهر الجرجاني وبذلك عد هذا الرجل اول مـن وضع اصول علـم البلاغة العربيـة بكتابيه اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ، كمـا اشرنا ايضا الى اثر التطور في حياة هذه البلاغة ، ذلك التطور الذي احالها الى قواعد ترتكز على التقسيم والتعريف دون نظر الى العمل الادبي كله وبذلـك وقفت البلاغة العربيـة عنـد حدود الجمـلة •

غير ان ضعف الملكات الادبية واتجاه المجتمع الاسلامي الى العلم بذلك التقسيم الذي عرض له ابن خلدون في المقدمة من فقه واصول وتفسير وحديث ومحاولة تقنين هذه العلوم وتقعيدها .

ثم ارتباط التشريع الاسلامي عند اولئك المتأخرين باللفظة والجملة ـ جعل هذه البلاغة تخدم اغراضا خاصة واهدافا معينة اهمها تحقيق القول في الاعجاز ـ من خلال تفسير القرآن ـ بتطبيق هذه القواعد عليه ثم تجديد الاستنباط الفقهي بالنظر ـ عن طريق هذه القواعد ـ في النص القرآني واستغلال طاقاته المتعددة استغلالا يدور في نطاق الجملة ـ وفي حدودها .

ولم يلق رواجا من بين علوم البلاغة سوى البديع الذي اتسع القول فيه اتساعا بعيد المدى حتى وصل به بعضهم وهو ابن ابي الاصبع الى ما يربي مائة نوع مع ما اصاب تسمية هذه الانواع من اضطراب واختلاف نلحظه بالمقارنة بينه وبين غيره من اولئك البديعيين الذين سلكوا طريقه واتبعوا منهجه ، ومع ما كان يحدو اولئك المؤلفين فيه من تصنع لافت وتكلف بارز .

ونجد امثلة لهذا التكلف فيما يورده الثعالبي في يتيمة الدهر من نصوص ، وفيما تستشهد به كتب التاريخ والتراجم من شواهد ادبيه تكشف عن اتجاه المترجم له في الصناعة الادبية وظل الامر كذلك حتى خضع المجتمع الاسلامي لحكم المماليك فاصاب الفنون الادبية ما اصابها من الجمود ، مع غلبة العامية وشيوع اساليبها على السنة الشعراء مما ادى الى ظهور فنون ادبية جديدة تعتمد على ذلك

الصراع الدائم بين الفصحى والعامية ومع احساس الادباء في هذه الفترة بان للعامية مكانها في التعبير عن الاحاسيس والانفعالات وما تسعف عليه من النكتة ، التي تزيد من طاقة السخرية اللاذعة والتهكم المزرى • من اجل ذلك شاعت الازجال واتخذت معارض للفكرة التي يراد اداؤها ثم ان الحروب التي دارت بين اولئك المماليك وبين الروم ساعدت على التمكين لهذه الازجال وامدادها بالمضمون الادبي والتاريخي مما ادى الى كثرتها كثرة غامرة وقد روى بدائع الزهور في وقائع الدهور كثيرا منها ومن اشهر اولئك الزجالين ابو الفرج الغباري ، كذلك روى طرفا منها السخاوى في الضوء اللامع لاهل القرن التاسع وهو احد مؤرخي هذه الفترة وتعمق الهوة بين الفصحى والعامية على يد الحكم التركي وتكاد الفنون الادبية تستحيل الى نوع من المساجلات الشعرية في البيت والبيتين والمقطعات الصغيرة وانواع المراثي التي قد لا تسعفك طاقة الاحتمال على الاستماع اليها والتصفح لها •

وتجري الحوادث سراعا وتبدأ بوادر التغير الاجتماعي الذي تتغير معه دائما النظرة الى اللغة ، والى الادب ثم الى القيم الاجتماعية التي تربط بين افراد المجتمع •

ولهذا التغير دائما اسباب وعوامل فاما اسبابه جملة فتغير نظام الحكم ثم اتصال الثقافة العربية بثقافات اخرى لها نشاط اخر • ومفاهيم خاصة ، وادراك بصير بطبيعة ذلك النشاط الذي تبذله ، ولتلك المفاهيم التي تتصل اساسا بتقييم الفكر ، وتعميق الثقافة ، ومحاولة الوصل بينها وبين المجتمع الانساني ، في تطوره الحضاري بعد ان اصاب هذا الفكر

ما اصابه نتيجة ظهور عصر النهضة ،واحياء التراث الانساني القديم ، وتقييمه على اسس جديدة اهمها يمثل التاريخ البشري تمثيلا لا يمكن ان نغفل معه ، اثاره في حاضر هذه الانسانية ، وثانيهما انه يعيننا على ان نحدد مكاننا من سلسلة التطور ومدارج التاريخ . وبذلك نبدأ في اداء الدور الذي ينبغي ان نؤديه في ترقية المجتمع . وقد تلا هذا العصر ذلك الغزو الاوروبي للبلاد العربية وكان ذلك اول احتكاك دائم بين هذه البلاد وبين اوروبة فكانت الحملة الفرنسية على قصرها بداية لفت العرب لهذا التطور الذي اصاب المجتمع الاوروبي سواء في العلم ام الفن ام السياسة ام الاقتصاد والاجتماع وتكاد تحس اثار هذا التطور ومظاهره في الحملة نفسها ومن الاقوال والنداءات التي كان يوجهها قوادها الى الاقاليم المفتوحة وقد روى طرفا منها الجبرتي في تاريخه فلقد عاصر هذه الحملة وشاهد كثيرا من وقائعها ووصفها وصفا دقيقا بل سجل دهشته لما رأى من الظواهر العلمية التي استبدت بعقله حتى جعلته يرى انها ظواهر سحرية ليس بينها وبين البحث العلمي سبب يمكن ادراكه او تعلقه . وقد قام كثير من العلماء الذين صاحبوا هذه الحملة بدراسة شاملة لمصر في كتاب اسموه « وصف مصر » باللغة الفرنسية كذلك استطاع احد علمائها وهو شامبليون ان يصل الى قراءة الرموز التي دونت على بعض الحجارة التاريخية وكان ذلك بداية التعرف المستمر على اصول الحضارة المصرية القديمة ونحن في حديثنا عن التطور الادبي والنقدي معا ينبغي ان نعني بهذا الكشف التاريخي ذلك لانه كان له اثره في الدعوة الى الاقليمية في اللغة والادب والتاريخ

وقد تعصب لها كثير مــن الساسة والمفكريــن يومئذ وقد اشار الباحث الدكنور محمــد حسيــن في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب الحديث الى هذه ابلدعوة وكشف عــن نوايا اصحابها واهدافهم ولفت الى اثارها يومئذ في تفريق المجتمــع العربي ثم الى خطرها في تهيئة الاذهان عنــد بعض التطوائف الي تعيش في هذا المجتمع زاعمة انها من بقايا اصول هذه الحضارة مــن حيــث النوعيــة البشرية كمــا كان لهذه الدعوة اثرهــا في بعــض الاتجاهات الادبيــة التي تؤرخ لها •

كذلك ادى تغير الحكــم في ظل الاثار المترتبة على هذه الحملة الى الاتصال بالغرب عــن طريق البعثات العلميــة وتبادل الاساتذة والمفكرين والى الاستفارة مــن خبرات التطور العلمي والفكري هنالك ولقد كان مــن اثر ذلك كله نشأة حركة الترجمة ثم التوسع في المترجمــات فلم تعد قاصرة على النشاط العلمي الخالص وانمــا اتجهت الى الادب في فروعــه المختلفــة واجناسه المتعددة ، وقد صحب ذلك كله العناية بدراسة اللغات الاوروبيــة في المدارس ثم في الجامعة القديمة والمدارس العليــا التــي سبقتها وقد تخرج فيها طلاب اتقنوا هذه اللغات فكانت لهم مشاركة قوية متفاعلــة مع حركة التطوير التي مرت بها حياة المجتمع العربي سواء في مصر ام في الشام •

وهمــا الاقليمان اللذان تعرضا لهذه الحمــلة ، وشهدا الــوان الصراع الثقافي والسيــاسى •

كمــا ترتب على ذلك كله تغير النظرة الى الاقتصاد ووسائل توظيف المال وموقف الفرد مــن هذا التغيير والتطور وقد نتج عــن ذلك كلــه

مشكلات اقتصادية اساسيــة كان مــن اثارها ذلك التطور المعاصر الذي
نشهــده اليــوم في النظريات السياسية الاقتصادية التي توجه حياة الامم
وتدفعها الى ايجاد علاقات اقتصادية يمكــن عــن طريقها استثــمــار
الثروات المنظورة والمطمــورة في صورة شركات مساهمة او شركات تتخذ
لنفسها طابعا اخر يحميها مــن الاعتراض والثورات التي تقوم بها الشعوب
وقد استبدت هذه الشركات او المؤسسات بالاستفادة مــن هذه الثروات
بمــا يضمــن لاممها البقاء ويحميــها مــن سطوة الحاجة ويدفع عنــها
قسوة الانهيــار في مجال التنافس الدولي والمغالبة السياسيــة •

بهذا التغير وذلك التطور تأثرت الدراسات الادبية النقدية وكان من
ابرز مظاهــر هذا التغير ان النقاد فطنوا الى وظيفتهم في الحياة المعاصرة
فهم اولا طائفة مــن طوائف هذا المجتمع والمشاركة الاجتماعية الجادة
تفــرض عليهم اشيــاء اهمها ان تتسع افاقهم العقلية والفكرية والادبية
فمــن واجبهم ان لا يقصروا انفسهم على النظــرة الجزئية التي كانت
طابع الدراسات الادبيــة في العصور الماضية ومــن هنا شاع بينهم ذلك
القول المأثور ان الادب هو الاخذ مــن كل فن بطرف ، وعند ذلك اخذت
ثقافة الاديب في الاتساع والتنوع ، والاتصال الناقد بالاثار الادبيـــــة
والفكريــة على اختــلاف الوانها وتعدد صورها واشكالها ، واذا كان
لا بد مــن التصفح للاثار الادبيــة السابقة فليس الا لانها تبصر الاديب
بالحقائق اللغوية التي تكفل للاسلوب الدقة في الأداء والصحة في الاستعمال
ولم يعد لها تلك المكانة في تربيــة الذوق الناقد والاحساس الواعي به
الا مــن حيــث الاطلاع على طبيعة التغير في المضمون الذي كان مــن

بيـن عوامله ذلك السيـر التاريخي الطويـل وما تم فيه مـن اتصال بحضارات واحتكاك بثقافات •

يقول الناقد الامريكي « اليوت » اننا لا نستطيع ان نقيم هـذا الحاضر الذي نعيش فيـه ما لم ندرك سيـر حياة الماضي ودوافع حياته ، ومقومات وجوده •

الباب الثالث

علم المعاني (أو علم المعنى) :

يعرف البلاغيون هذا العلم بأنه الذي يحترز به عن الخطأ في التعبير بالصور اللفظية عن الأفكار والمعاني المتصورة في الذهن .

أو بأنه العلم الذي يعرف به أحوال اللفظ العربي من ناحية مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحة الألفاظ المعبرة عن الفكرة ، وكلا التعريفين يكشف لنا عن طبيعة علم المعاني ، ووظيفته في التعبير عن الفكر تعبيرا يلائم أحوال المخاطبين وقدراتهم في الفهم ، ومدى ما يكون لديهم من الاستعداد لتقبل الفكرة التي يراد أداءها .

وقد أثار تعريف القدماء أمرين :
هما الحال والمطابقة لمقتضى الحال

والمراد بالحال الأمر الداعي للمتكلم الى ايراد كلامه على نحو خاص كالتوكيد ، أو القاء الخبر بدونه ، أو الاغراق في أساليب التوكيد رعاية لما كان عند المخاطب من شك في مضمون الفكرة المعبر عنها .

أما المطابقة فهي ايراد الكلام طبقا لهذه الحال .

موضوع علم المعاني :

موضوع هذا العلم هو الجملة وهي تتألف من مسند اليه ومسند :

والمسند اليه ما يتحدث عنه ويشمل المبتدأ الذي له خبر والفاعل ونائب الفاعل واسم كان واسم ان واسم ما الحجازية واسم لا النافية للجنس ، والنافية للوحدة .

او بعبارة أدق ما كان أصله مبتدأ ثم دخلت عليه أداة من أدوات النسخ المعروفة في علم النحو •

أما المبتدأ الذي له فاعل سد مسد الخبر كما في قولنا :

ما قائم أخواك ، فليس بمسند اليه وانما هو مسند والمسند اليه هو الفاعل ، وانما أعرب قائم مبتدأ رعاية للصياغة النحوية وهو في الواقع مسند لأنه وصف للفاعل فهو بمثابة الفعل في الجملة الفعلية وانما أعرب هنا مبتدأ لأن النحو يأبى اعرابه غير ذلك •

والمسند هو الفعل والخبر ، واسم الفعل والمصدر النائب عن فعل الأمر •

وما زاد عن ركني الاسناد من القيود والاضافات والصفات فانها قيود ، كذلك الجمل الحالية وجمل النعت ليست داخلة في حدود الاسناد لأنها تحل محل المفرد فاذا قلت مثلا أقبلت الفتاة تبتسم فان جملة تبتسم بمنزلة مبتسمة وركنا الاسناد هما أقبلت والفتاة •

اقسام الجملة :

المعروف أن اللغة اما أن تعبر عن واقع حدث وانتهى ، أو عن أمر يستشرف المتكلم الى حدوثه ، والأول هو الجانب الوصفي من وظيفة اللغة ، او التقريري ، أما الثاني فهو جانب الدفع الى أمر يمكن أن تستفيد به الحياة في تطورها وعمرانها وقد يؤدي الى فساد الأمر واضطرابه ففيه احداثات جديدة لم تكن •

والأول يسمى الخبر   والثاني الانشاء

وقد عرف البلاغيون الخبر بأنه ما يمكـــن أن يقال لصاحبه انك صادق أو كاذب اذا كان يتفق والواقع ، أما الثاني فلا يصح أن يقـــال لقائله انك صادق أو كاذب اذ ليس له واقع يمكـــن أن يقارن به فيحكـــم بصدق قائله أو كذبه .

الانشـــــاء

ينقسم الانشاء الى قسميـــن طلبي وغير طلبي .

فالطلبي ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ويكون بالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء وهي المجمـــوعة في قولهم :

مر ونه وارع وسل واعرض لحضهم

تـــمن وارج . كذاك النفي قـــد كمـــلا

وليس النفي منها وانما جيء به تكملة لقاعدة نحوية .

وأحيانا يطلق الخبر ويراد به الأمر تنبيها للمسارعة اليه ، وحثا على امتثال الأمر به ، وأغلب ما يستعمل هذا الاسلوب في مقام الـــدعاء ، أو التكاليـــف الشرعيـــة المؤدية الى اصلاح المجتمع وسلامته ، وتسمى هذه الجمل خبرية لفظا انشائية معنى ، كقولهم : غفر الله له ، ورحمه الله ، وكقوله تعالى والوالدات يرضعن أولادهن حوليـــن كامليـــن ، فانه يفهم منها الأمر بالارضاع ، كما في قوله تعالى : ولله على الناس حج البيت فانه يفهم منها الأمر بالحج .

أما الانشاء غير الطلبي فهو ما لا يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت

الطلب ، وله صيغ كثيرة منها التعجب والمدح والذم والقسم ، وأفعال الرجاء وصيغ العقود •

وليس المراد من التعجب الصيغ النحوية المعروفة وهي ما أفعله وأفعل به بل يشمل كل اساليب التعجب التي تواضع عليها أهل اللغة واستعملها المجتمع ، نحو لله دره فارسا ، ونحو يا للعجب ويا للماء ويا للعشب ، وما اليها من الأساليب التي تدل على دهشة ألمت بقائلها من امر رآه، أو حادثة صادفها ، ونلاحظ أن الأسلوب غير الطلبي من الانشاء يعبر عن رأي أو فكرة ، أو موقف للمتكلم به ، فالمدح والذم ، والتعجب والرجاء ، وانجاز العقود كلها مما يتصل بصاحب الكلام •

ونلاحظ أن الأسلوب الانشائي من أخص ما يمتاز به الشعر من الأساليب ولذلك يكثر فيه بل نبه النقاد القدماء الى ضرورة الاكثار منه في الشعر •

قال بشار :

يا عبد حيي من قريب   وتأملي عين الرقيب
وارعي ودادي غائبا   فلقد رعيتك في المغيب

فقد استعمل صيغة الأمر ثلاث مرات كما استعمل اسلوب النداء وهو من أساليب الانشاء •

الجملة الخبرية :

الأصل في الخبر أن يلقي لأحد أمرين اما افادة المخاطب فائدة جديدة لم يكن يعرفها وتسمى فائدة الخبر أو افادة المخاطب أن المتكلم

عارف بذلك الخبر مع العلم المخاطب سلفا به، وأغلب ما يستعمل هذا النوع من الاخبار في أمر يتعلق بالمخاطب حتى يكون عالما بمضمونه كقولك : أعرف أنك تصحو مـن النوم مبكرا لتذاكر دروسك •

هذا هو الأصل في الاخبار كمـا أن ما قدمناه في الكلام عن الانشاء هو الأصل في الانشاء فاذا استعمل أيهمـا في غير ما وضع له في أصل الاستعمـال اللغوي كان خروجا عما وضع له اللفظ أو الأسلوب ويسمى عنـد البلاغيين خروجا عن مقتضى الظاهر •

والمراد بالظاهر هنا أصل الاستعمال اللغوي في دلالاته الأولى ، فالخبر للافادة، والانشاء لاحداث امر جديد ، فاذا استعمل الخبر لغير ذلك والانشاء لغيـر ما وضع له كان ذلك خروجا عـن الظاهر •

وعلى ذلك اذا خرج الخبر عن ظاهره الى معان أخرى يستشرف اليها المتكلم ، كان ما خرج اليه الخبر خروجا عـن الظاهر • وهذه المعاني التي يستشرف اليها المتكلم كثيرة يمكن أن يحددها مفسر النص أو السامـع له او قارئه مـن الظروف والملابسات ، ودراسة نفسيـة المتكلم والسامع معـا •

فقد يلقى الخبر للاسترحام ، أو التحسر ، أو اظهار الضعف ، أو الفخر ، أو الرثاء ، أو الحث على السعي أو المجد •

ونجـد في القرآن الكريم وفي الشعر كثيرا من الأمثلة لخروج الخبر عـن ظاهره •

فزكريا اذ يقول : رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبـا ، لا يـريـد الا اظهار الضعف •

والمتنبي اذ يقول :

أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي
واسمعت كلماتي من به صمم

لا يقصد الا الفخر •

والشاعر الذي يقول :

اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

لا يقصد الا الى الحكمة واسداء النصح •

وهكذا نرى ان الاخبار تخرج عن اصل وضعها الى معان أخرى يستشرف اليها الأديب على أن ادراكها مشروط بدراسة الظروف المحيطة بالنص وبصاحبه والملابسات المحتفة بهما معا •

اقسام الخبر او اضرب الخبر

هذا التقسيم خاص بطريقة تركيب الجملة حسب حالة المخاطب ، فان كان خالي الذهن أو بعبارة أخرى جاهلا بمضون الحكم ألقي اليه الكلام دون تأكيد نحو : محمد نجح في الامتحان ، ويسمى هذا الضرب من الكلام ابتدائيا •

وان كان مترددا في الحكم أكد اليه الكلام بما يلائم درجة التردد نحو : ان محمدا نجح ، ويسمى هذا الضرب طلبيا •

وان كان منكرا تمام الانكار اكد اليه بما يستطاع من الأساليب

اقسام الانشاء

الأمر : طلب الفعل على وجه الاستعلاء ، وله صيغ منها فعل الأمر

واسم فعل الامر ، والمضارع المقرون بلام الامر والمصدر النائب عن فعل الأمـــر •

والغرض مـن ذكر كلمة الاستعلاء أن القصد أولا من الأمر حمل المخاطب على الامتثال به وتنفيذه ولا يتأتى ذلك الا اذا كان الآمر له سلطان على من وجه اليه الأمر ، فاذا كان المتكلم بلفظ الأمر ادنى مرتبة مـن المخاطب به سمي دعاء كما في قوله تعالى : غفرانك ربنا واليك المصير •

فانه مصدر نائب عن فعل الأمر •

ذلك هو أصل وضع الأمر في اللغة وقد يخرج الى معان أخرى يمكن أن يلحظها السامع أو المفسر للنص •

منها التهديد ، والسخرية ، والتخيير ، والاباحة ، والارشاد ، والدعاء ، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة لخروج الأمر عن ظاهره لمقاصد وأغراض •

وفي الشعر العربي كثير ،

فبشار يقـول :

واستغـن بالوجبـات عـن ذهـب
لم يبـق قبلك لامـرىء ذهبـه

ويراد به الارشاد ، والقرآن يقول : قل كونوا حجارة أو حديدا ، والقصد منـه التهديد ، كمـا يقول أيضا في معرض السخريـة مـن

الكافريــن : فبشرهم بعذاب أليم •

وهنا نفرق بيــن الاباحة والتخيير ، فالاباحة ترتبط بأصل الحكــم كقولهم : تزوج هندا أو أختها ، أما التخيير فلأمور اخرى لا تتصل بحكم كقولهم : كل هذا أو ذاك ، أي أنت بالخيار في تناول أيهما شئت •

والقرآن حيــن يقول : كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، لا يريد حقيقة الأمر بالأكل والشرب وانما يريد الاباحة •

وهكذا نرى أن الامر يخرج عن معناه الى معان أخرى يحددهـــا متذوق النص والمدرك لاسرار التعبير •

النهي : وهو طلب الكف عــن الفعل على وجه الاستعلاء أيضـــا وهو أصل وضع هذا الأسلوب في اللغة وهو المسمى بظاهر النص نحو قوله تعالى : ولا يأتل اولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا أولي القربى ، ونحو : ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ، وصيغة النهي المضارع المقرون بلا الناهيــة •

وقد تخرج صيغة النهي عن معناها الحقيقي الى معان أخرى تستفاد من السياق وقرائن الاحوال ومنها الدعاء : لا تؤاخذنا بما فعــل السفهاء منا ، خطابا لله عز وجل ، والالتماس اذا كان المتكلم والمخاطب متساويي الدرجة الاجتماعية كقولك لزميــلك : لا تؤذني ، والتمني مثل قول أبي نواس في مدح الأمين :

يا ناق لا تسأمــي او تبلغــي ملكـــا
تقبيــل راحتــه والــركــــن ســيان

ومنها الارشاد والتوجيه

نحـو قول الشاعر :

ولا تجعـل الشورى عليـك غضاضـة

فريش لخوافي قـوة للقـوادم

ومنها التهديد والتعجيز والسخرية وما اليها مـن المعاني .

الاستفهـــام :

هو طلب الفهم وهو أصل وضعه اللغوي ، وله أدوات كثيرة أهمها الهمزة ، وهل ثم بقية اسمـاء الاستفهام وهي مشتركة بيـن الشرط والاستفهام كمـن ، وما ، وأين ، ومتى ، وأيـان .

الهمزة وهل :

يطلب بالهمزة أحد أمريـن :

التصـور أو التصديـق .

والتصور هو ادراك المقرر أي أحد طرفي الجمـلة وفي هذه الحالة يؤتى بالمسؤول عنه بعد الهمزة نحو : أراغب أنت عن آلهتي يـا ابراهيم ؟ وغالبا ما يأتي المعادل في الجمـلة مقرونا بأم نحو : أمحمد أم علي حضر ؟ وتسمى أم المتصلة .

أما التصديق فهو ادراك النسبة بين ركني الجمـلة مثل : أذاكرت دروسك ؟ وفي هذه الحالة يمتنع ذكر المعادل ، أما هل فانها لطلب التصديق ولا يؤتي بعدها بمعادل فان جاءت بعدها أم قدرت بمعنى بل وكأنها بداية استئناف جمـلة جديدة بعد الاضراب عـن الأولى .

أما بقية أدوات الاستفهام فانها لطلب التصور •

فمـن للسؤال عـن الذات العاقلة ، وما لما لا يعقل أو الماهيـة ، وأين للمكان ومتى للزمان وكيف للحال وأيان للسؤال عن زمن مستقبل وانى وتأتي لمعان كثيرة فتكون بمعنى كيف ومـن أين ومتـى ، وأي مشتركة بيـن جميـع هذه المعاني بحسب ما تضاف اليه •

أما كم فان كانت استفهاميـة دخلت بين أدوات الاستفهام وان كانت خبرية فليست مـن هذه الادوات •

وقد تخرج ألفاظ الاستفهام الى معان أخرى كالنفي والانكـار والتقرير والتوبيخ ، والتعظيم ، والتعجب والتسوية والتمني والتشويق •

فمثال النفي هل الدهر الا ليلة ونهارها لأن هل هنا بمنزلة ما بدليل نقض النفي بالا ، والتقرير كقوله تعالى الست بربكم ، والانكار مثل :

أيقتلنـي والمشرفـي مضاجعـي
ومسنونة زرق كأنـياب اغـوال

النـداء :

طلب الاقبال بحرف مـن حروف النداء الثمانية وهي الهمزة وأي ويا وآ وأي وايا وهيا ووا •

والهمزة وأي لنداء القريب وسواهما لنداء البعيد وقد يخرج النداء عـن معناه الى معان أخرى وقد ينزل البعيـد منزلة القريب أو العكس•

أما التمني والترجي فهما معروفان والاول يتعلق برجاء البعيـد حصوله والثاني برجاء الممكـن حصوله ويتمنى بليت وقد تستعمل هـل ولو ولعل لغرض بلاغـي •

ويترجى بلعل وعسى وقد تستعمل ليت لغرض بلاغى وانما يتمنى بهل أحيانا لجعل الأمر البعيد قريبا فيسأل عنه ويتمنى بلو للاشعار بامتناع الأمر المتمنى وعزته وندرته ذلك لأن الاصل في لو الامتناع

ونلاحظ فيما سبق أمرين :

اولهما ان الاستعمال اللغوي الاول أو وظيفة الاسلوب في الاداء اللغوي يسمى الظاهر وهو ميدان عمل أهل اللغة كما أنه نقطة بداية التطور الاولى في الدلالات اللغوية الثانية التي هي محل تصرف الأديب . وميدان نشاطه ،

ويمكن أن نزيد الامر وضوحا بأيراد بعض الامثلة فالاستفهام طلب الفهم . تلك وظيفة في اللغة وتلك ميدان بحث اللغوي او النحوي كما يسميه بالظاهر وخروج الاستفهام الى معان أخرى كالتشويق أو الامر أو التهكم !! التقرير ذلك عمل الأديب وتلك معان ثانية لا يشتشرف اليها الا البصير بصناعة الادب ولا يرقى الى ابرازها الا الناقد العالم بجيد الكلام ورديئه .

وخلاصة القول :

أن البلاغي مطالب بأن يعرف ذلك التطور الدلالي واثره في استعمال اللغة ، على ألسنة المتصرفين في فنونها المختلفة .

القصر :

تجري على ألسنة الباحثين ثلاثة اصطلاحات وهي القصر والحصر

والتخصيص والفروق بينها دقيقة

فاما القصر فهـو تخصيص أمر بأمر بأداة الفرض

وطرق القصر أبعة :

١ ـ وهي النفي والاستثناء وهي ما والا وان النافية والا ، وهل والا

٢ ـ انمـا

٣ ـ العطف بلا أو بل أو لكـن

٤ ـ تقديم ما حقه التأخيـر

وتفيـد الادوات الثلاث الأخرى القصر بطريق الوضع اللغوي أمـا الأخير فانه يفيـده بطريق الفحوى والنظر في طبيعة التركيب وظروفـه والفكـرة المعبـر عنها ،

الجملة المقصورة :

نلاحظ أن الجمـلة المقصورة تتركب مـن مقصور ومقصور عليـه وادات قصـر .

والمقصور عليه في النفي والاستثناء ما بعد الا

نحـو قوله تعالى وما محمـد الا رسول فأنه قصر محمـدا على الرسالة وحدها دون نظر الى بقيـة الصفات

والمقصور عليه في انمـا هو المتأخر وانما نحو انما محمد كريم فقد قصر محمـدا على الكرم دون غيره مـن الصفات

والمقصور عليه العطف بلا السابق عليها نحـو محمـد كريـم لا بخيـل ، وفي العطف بيل أو لكن ما بعدها . م االارض ثابتة لكـن

متحـركة منت قصر الأرض على الحركة ، والمقصور عليه في التقديم هو المقـدم نحـو اياك نعبـد واياك نستعين •

الفروق بين ادوات القصر :

تستعمل ما والا أو النفي والاستثناء في مقام الانكار لأصل الحكـم المدلول عليـه بالجمـلة أو ما ينزل فيه المخاطب منزلة المنكر نحو ومـا محمـد الا رسول قد خلت مـن قبله الرسل ، وقد ذكر عبد القاهر في دلائل الاعجاز أن الآية نزلت لما اشيع أن الرسول قتل في غزوة أحد وأن بعض المسلميـن الأولين كانوا يستكثرون ان ينزل به الموت فنزلت الاية مصورة لما كانوا عليـه حيال هذه القضيـة ، وقد قصرته الآية علـى الرسالة وهي وظيفته الأولى التي اختاره الله لها دون تبريه مـن الموت أو ما يعرض له مـن المخاطـر التي تعرض لبني الانسان •

أما انمـا فانها تستعمل في مقام لا انكار فيه فالمضمون الواردة فيه لا مشاحة فيه ولا جدال عليـه بالقدر الذي حول مضـمون النفـي والاستثناء كمـا في قوله تعالى وانما حرم عليكم الميتة والدم ولحـم الخنزيـر ، وقد ذكـر المفسرون أن معنى الآية ما حرم عليكـم الا الميتة فهي بمثابة النفي والاستثناء •

وقد ينزل ما هو موضع الشك موضع الثابت الذي لا مشاحة فيه كمـا في قول الشاعـر في مدح مصعب ابـن الزبيـر

انمـا مصعـب شهاب مـن الله
تجلـت عـن وجهـه الظلمـاء

اقسام القصر :

ينقسم القصر الى قسمين : قصر صفة على موصوف وقصر موصوف على صفــة فمثال الأول ما كريم الا محمــد ومثال الثاني ما محمــد الا كريـــم •

كما أنه ينقسم الى حقيقى واضافي فاذا كان القصر يختص فيــه المقصور بالمقصور عليــه بحسب الحقيقــة والواقع بحيــث لا يتعداه الى غيــره سمى قصرا حقيقيــا وان كان بالنظــر الى امر اخر سمى أضافيــا والقصر الحقيقي ليس موضع نظرا البلاغي وانما القصر الاضافي محل اعتبار البلاغي ونظرته ، والافتنان فيه •

وهو ينقسم بحسب حال المخاطب الى قصر افراد وقصر قلب وقصر يقين وكل منها بحسب الاعتبار فاذا قلت مثلا ما محمــد الا كريم لمــن يعتقد انه كريم لا شجاع كان قصر افراد وكان قصر قلب لمــن يعتقــد فيه الشجاعــة دون الكرم وان كان مترددا في اثبات أي الصفتين لـــه كان قصر تعيين •

موقف البلاغى من هذا الاسلوب :

يتحدد موقفه في استعمــال بعض أدوات القصر والمفاضلة بينها ، كمــا يعني بالقصر الاضافي ، أما القصر الحقيقي فلا يدخل في نطــاق عمــله وربمــا كان ادخل في باب العلم والقانون

الفصل والوصل :

الأبواب الماضيــة في علم المعاني تتعلــق بالجمــلة وتأليفها وما قد

يدخل عليها مـن ادوات تكسبها قيدا أو فكرة جديد وهو أشق ابواب هذا العلم اذ يحتاج الى حصافة وعمق اوراك ، يتهيأ معهما نـوع مـن الادراك لحقيقة المعاني التي تدل عليها الجمل وصلة كل منها بالآخر •

والفصل والوصل كغيره منـه ما يتعلـق بعلم النحـو ، وهـذا لا مجال لتصرف البلاغى فيه ومنـه ما يتعلق بالفكرة نفسهـا والتصرف في عرضها والافتنان في بيانها وجلائها •

ويعرف البلاغيون الوصل بأن العطف بالواو والفصل ترك العطف

ويجب الفصل بيـن الجملتيـن في ثلاثة مواضع :

١ ــ أن يكون بينهمـا اتحاد تام وذلك بأن تكون الجمـلـة الثانية بيانا او توكيدا او بدا من الاولى بحسب نظرة الاديب وتقديره ويسمى الفصل في هذه الحالة بكمال الاتصال ، ذلك لان العطف يقتضي المغايره بين الجملتين ولا مغايرة بينهما ولذلك وجب الفصل •

فمثال التوكيـد قوله تعالى ذلك الكتاب ، لا ريب فيه فجملة ذلك الكتاب والة على أنه كتاب الحق الذي ريبة فيه والجمـلة الثانية انمـا جاءت توكيدا للجملة الأولى ، ومثال البدل قوله تعالى !مدكم بما تعملون أمد كم بأنعام وبنين جنات وعيون فان الجمـلـة الثانيـة بمنزلة البـدل مـن الجملة الأولى

واذا كان بيـن الجملتيـن تمـام الخلاف والتبايـن كاختلافهمـا في الخبرية والانشائية أولا يكون بينهمـا مناسبـة تقتضي الوصـل وجب فصلهمـا ويسمى كمـال الانقطاع ومـن ثم عابوا على ابي تمام قـولـه •

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسيـــن كريم اذ لا مناسبة بين مرارة النوى وكرم ابي الحسين •

٣ ـ يجب الفصل اذا كان الجمـــلة الثانيـــة بمنزلة جواب لسؤال مقدر ناتج عـــن الجمـــلة الأولى ويسمى شبه كمـــال الاتصال

نحـــو ومـــا أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء وغالبا ما يؤكد الجمـــلة الثانيـــة بان كما في هذه الآية ،

وقد ذكر بعض المتأخرين مـــــن مواضـــع الفصل الاستئنـــاف وعدوا منها أن تبدأ الجملـــة الثانية بما انتهت اليه الجملـــة الاولى ،

نحـــو أ حسنت الى زيد زيد حقيق بالاحسان ولكن هذا الموضع عنـــد التأمل يرجع الى شبه كمـــال الاتصال بالمعنى الأول فلا ضرورة لعده بابا مستقلا ،

٤ ـ اذا كان للجمـــلة الأولى معنى زائد لا يراد اعطاؤه للثانية نحو ما محمـــد الا كريم زيد يخيل فالجمـــلة الأولى مقصورة ولا يراد نقل القصر الى الثانيـــة بطريق العطف •

مواضع الوصل :

ويجب الوصل في ثلاثة مواضع •

١ ـ اذا قصد اشراكهمـــا في حكم اعرابي نحـــو زيد يلهو ويلعب

٢ ـ اذا اتفقا خبرا وانشأ مع وجود مناسبة بينهمـــا نحو محمد رسول اللـــه والذيـــن معه أشداء على الكفار رحما وبينهم ـ تراحم ركعـــا

سجـــدا .

٣ ــ اذا اختلفا خبرا وانشأ وأوهم الفصل خلاف المقصود نحـــو لا وأيدك اللــه

الايجاز والاطناب والمساوة :

المساواة أن تكون الألفاظ على أقدار المعاني ، نحو قوله تعالى ، مــن يعمــل سوءا يجز به ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، مــن حســن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فانك لا تجد في هذه العبارات تقسيما ولا ايضاحا ، ولا قيودا ، واذا حذفت منها كلمة فسد المعنى ، واضطرب أمـــــره

الايجــاز : جمع المعاني كثيرة تحت اللفظ القليل مع الابانـــة والافصاح وهو نوعان

أ ــ ايجاز قصر ويكون يتضميــن الكلام القصير معاني كثيرة نحو له تعالــى .

ولكــم في القصاص حيــاة .

ب ــ ايجاز حذف وذلك بحذف بعض الجمــلة كحرف من حروفها أو فعل أو اسم ، لأن في الكلام دلالة عليه ولأن المعنى بدون ذكـــره يستقيــم .

كمــا في قوله تعالــى :

فاما الذيــن أسودت وجوههم اكفرتم أي يقال لهم اكفرتم ، وكما

في قوله تعالى ولو أن قرآنا سرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا فجواب لو محذف تقريره لكان اياه وكما في قول المتنبي •

أتى الزمان بنوه في شبيبته • فسرهم واتيناه على الهرم

أي فسرهم ولم يواتنا بما يسرنا به كما فعل مع السالفين •

الاطنـــاب :

الأطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة يقدرها المتكلم ويكون بعدة أمور : منها ذكــر الخاص بعد العام أو العكس

والايضاح بعد الابهام

والتكرار لداع مــن الدواعي التي يتطلبها الموقف والاعتراض •

والتذييل وهو تعقيب الكلام بجملة تشتمل على معناه توكيدا لــه وهو قسمـان

أ ـ ما جرى مجرى المثل ان استغني عمـا قبله

ب ـ ما لم يجـر مجرى المثل ولا استغناء له عمـا قبله •

والاحتراس لدرء شبهة قد تعرض للمتكلم ان لم يحترس ، فيفطـن لها ويدفعها عــن نفسه ،

فمثـال الخاص بعـد العام

جاء مجلس النواب ورئيسه

ومــن قوله تعالى تنزل الملائكة والروح فيها ومثال العام بعـــد الخامس

رب اغفر لي ولوالدي ولمــن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنيـــن والمؤمنــات

ومثال الايضاح مبد الابهام

وقضينا اليــه ذلك الأمر أن دابــر هؤلاء مقطوع مصبحين

ومثال التذييل قول الخطيئة

تزور فتى يعطي على الحمــد ماله

ومــن يعط أثمان المحامـــد يحمـــد

ومثال الاحتراس :

صببنــا عليها ـ ظالمين ـ سياطنــا

فطارت بهــا أيــد سراع وأرجــل

فقد رأينا بعد هذا العرض لعلم المعاني كمــا اصطلح على تسميته في القرن السادس الهجري على يد السكاكي أن البحوث التي أثارهــا أصحاب الدرس البلاغي فيــه منها ما هو متصل بالنحــو وهو تحديــد الوظيفــة الأولى لكل اسلوب ومنها ما يرجع الى تصرف الاديب وفطنته وتقديــره للفكــرة ، وصلتها بحياة الناس الذيــن ينتج الادب لهم ،

وهذا التناول هو ما يسميه عبد القاهر ، بالمعنى ومعنى المعـــنى ، والواقع ان الاديب لا يستطيع التصرف في المعنى النحوى او المعنى الاول ، وانمــا تتحدد قدرته في التصرف في معنى المعنى ،

ومن هنا قد يدخل على عمله الخطأ ان لم يكن بصيرا بحياة المعانى في نشأتها وتطورها ، وخصائص الاشياء وصفاتها التي يريد التصرف في مدلولاتها بما يزيد عمله الفني أصالة وعمقا ،

واذا نحن تأملنا ما ذكره النقاد في كتبهم كصاحب الوساطة والموازنة والعسكري ، وعبد القاهر وغيرهم مما عانوا الدس البلاغي في صورة نقدية لبعض ما انتج الشعراء والادباء بعامة وجدناهم يعقدون أبوابا يتحدثون فيها عن أغلاط الشعراء وقد يشيرون اليها عرضا في حديثهم عن الفنون البلاغية كالاستعارة والتشبيه •

فاذا كان المعنى هو العلاقة بين المحتوى الفكري واللفظ فان علم المعاني هو العلم الذي يقفنا على الاساليب التي نستطيع عن طريقها أن نحدد هذه العلاقة ، وأن نكشف عما وراءها من الظروف النفسية ، والاجتماعية ، لمنتج الادب أو الفن ، والمستقبل له •

وعلم المعاني بهذه الصورة ــ أقرب الى النحو ، وأشد به التباسا ، واذا كان العمل الفني الادبي يعتمد على أمرين هما الفكرة أو بعبارة أخرى المضمون ، ثم اللفظ المعبر عنه ــ فان علم المعاني : يبحث في الامر الاول منهما ــ وفي مدى التكافؤ الحادث بين اللفظ وبين الفكرة ، وهو لذلك ــ أقرب الى النحو ــ الذي توزن به الصحة والخطأ ، في التعبير عن المعنى ، وتقدير كمة ، ومقدار التكافؤ بين الالفاظ المعبرة عنه ، وبينه•





المراجـــع

De Laguna : Speach, Its Function and development.

Diamond : The History and origin of Language.

Richard : The meaning of meaning.

Jesperson : Language, Its origin and development.

Potter : Our own Language.

ابن سلام : طبقات فحول الشعراء

ابن فارس : الصاحبي في فقه العربية وسنن كلامها

ابن قتيبة : الشعر والشعراء

ابن المعتز : طبقات الشعراء

ابن المعتز : البديع

الجاحظ : البيان والتعيين

الجاحظ : الحيوان مقدمة الجزء الاول عن اللغة وظاهرة التأويل

قدامة بن جعفر : نقد الشعر ونقد النثر

وهنالك مراجع فرعية رجعت اليها وهي حسب ترتيبها بعنواناتها :

أخبار أبي تمام : لجنة التأليف ١٩٣٧

الامالي : لأبي علي الثعالبي

أمالي المرتضى : تحقيق أبو الفضل

أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجاني نشر رشيد رضا

أمالي الزجاجي : السعادة ١٣٢٤ هـ

الامتاع والمؤانسة : لجنة التأليف

ديوان المعاني : مطبعة القدس ١٣٥٢

الصناعتين : تحقيق بأبي الفضل والبجاوي

العمدة : ١٩٠٧

الكامل للمبرد : ليبزج ١٨٦٤

مجالس ثعلب : الجوائب ١٣٠١

محاضرات الراغب : الشرفية ١٣٢٦

المختار من شعر بشار: الاعتماد ١٩٣٤

معاهد التنصيص : المطبعة البهية ١٣١٦


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com